

PJ
7864
Q28
W2

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

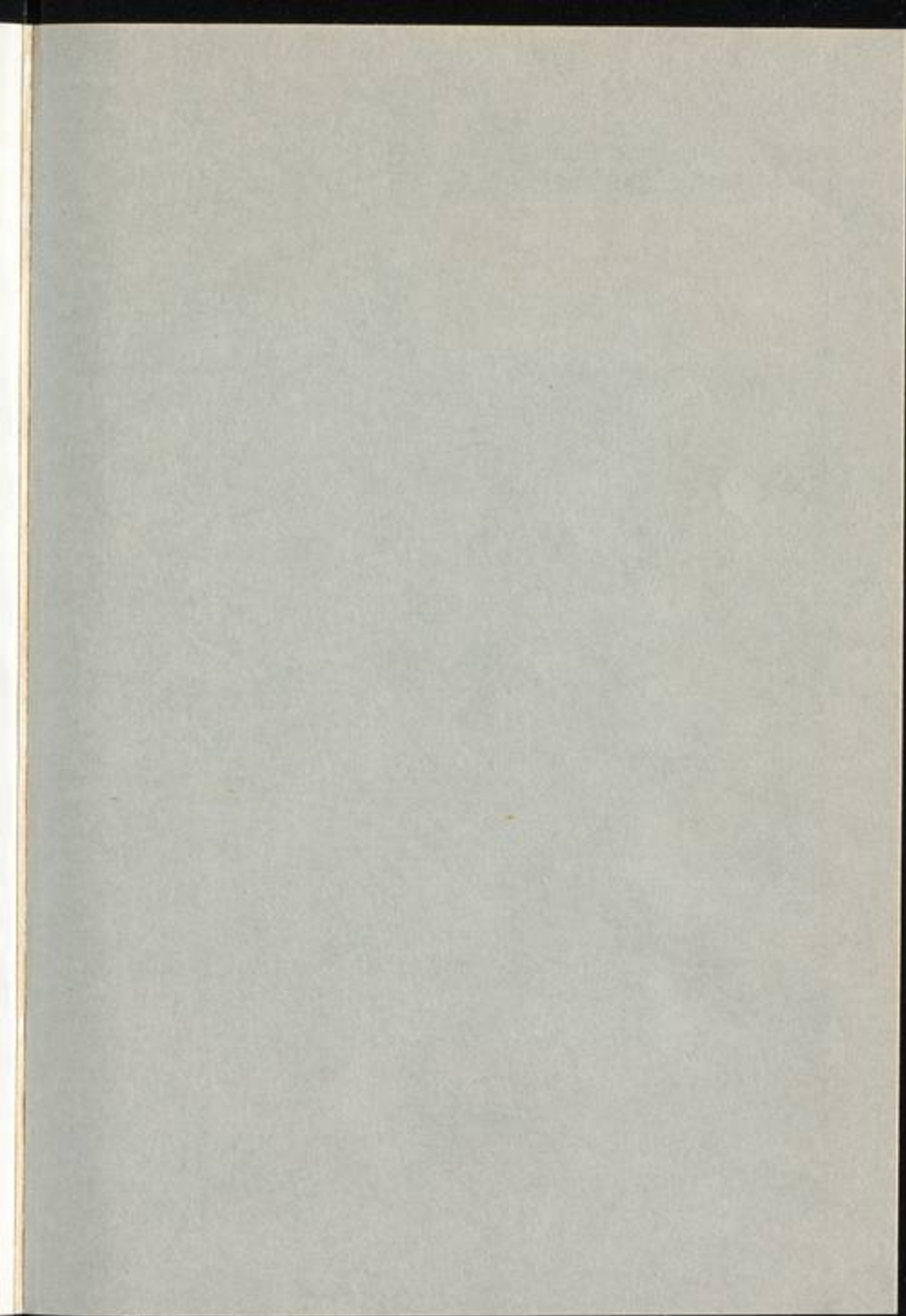
Cornell University Library
PJ 7864.A28W2

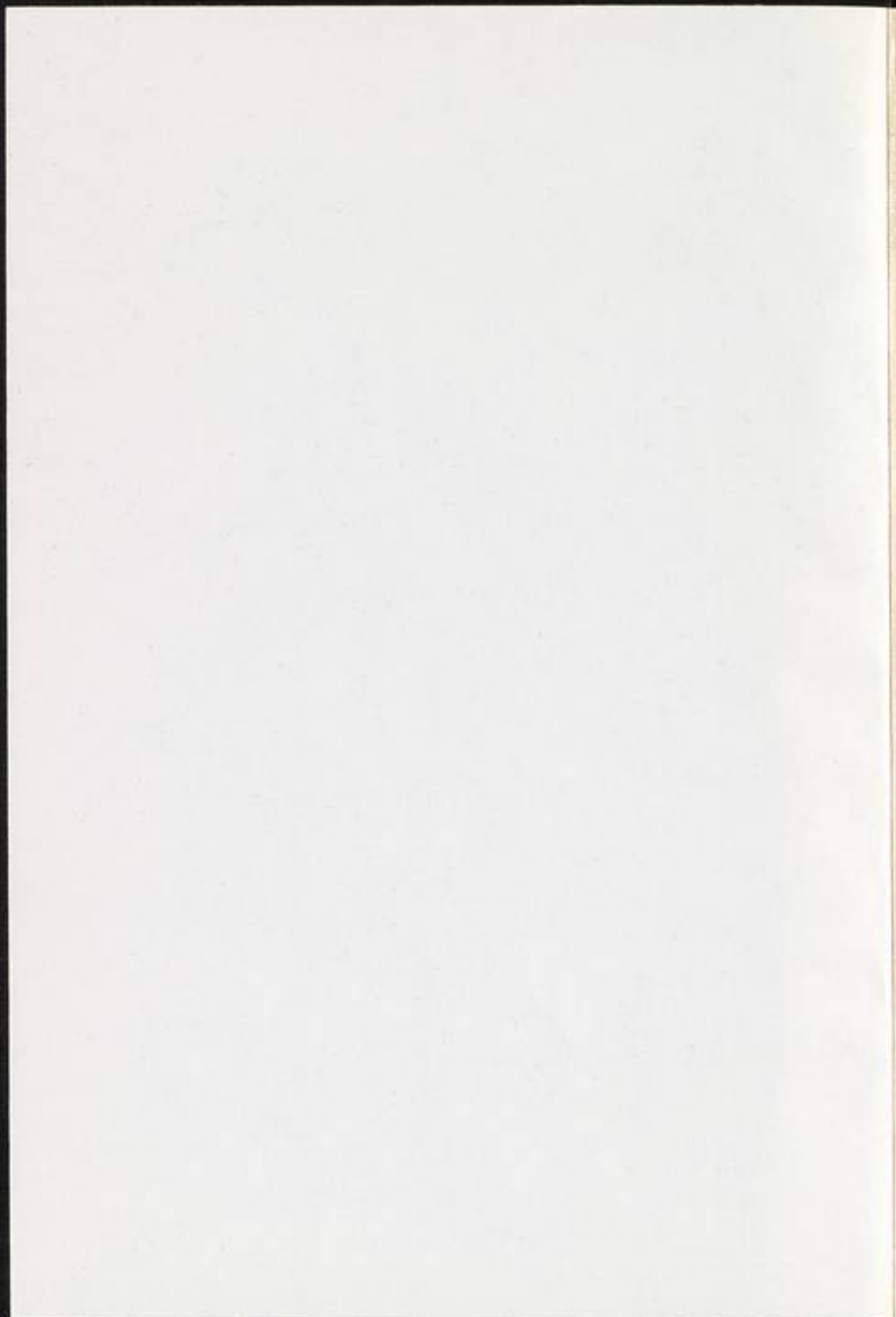
Wad al-haqq /

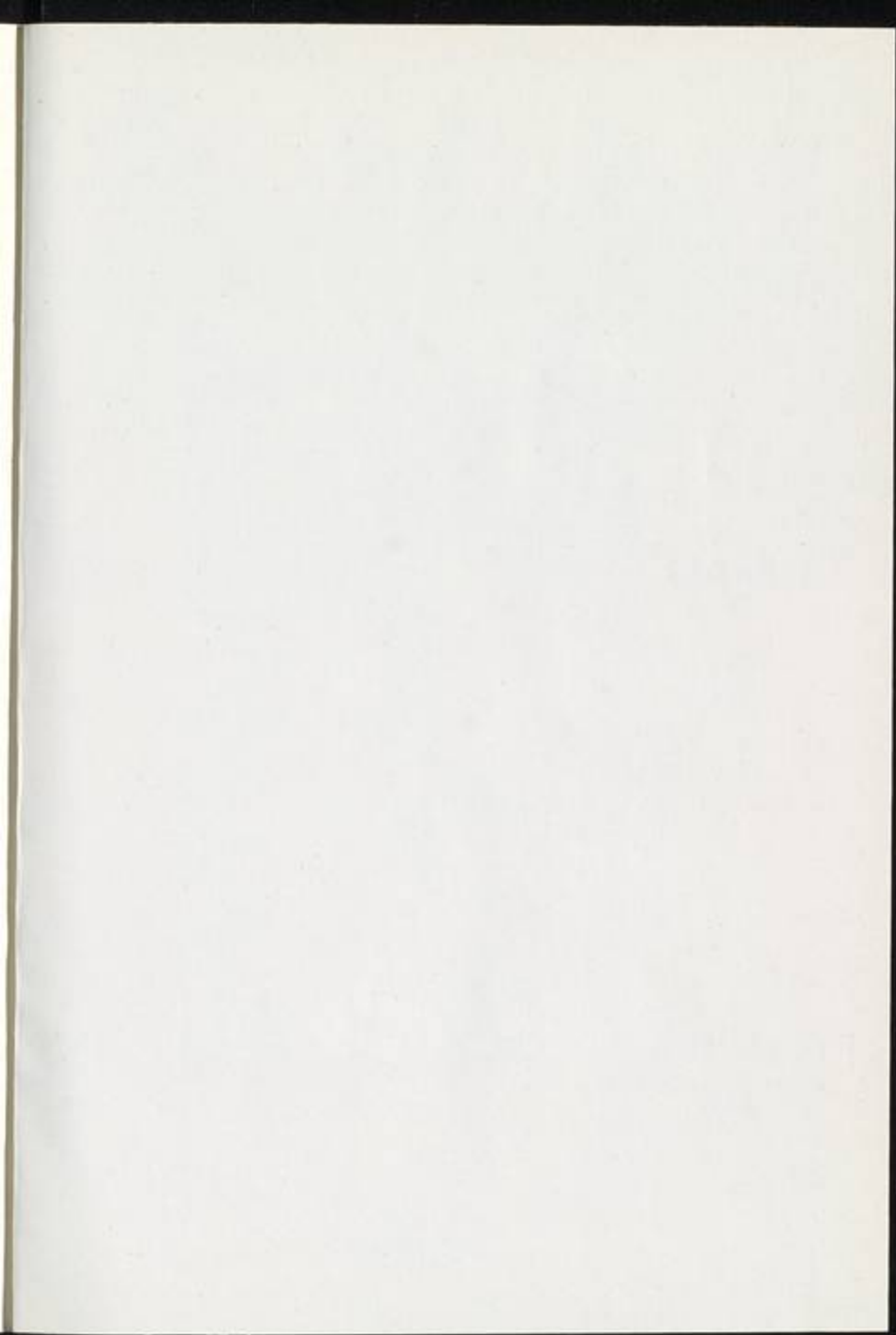


3 1924 026 869 408

cm







ظه حسين

الوعد الحق



دارالمعارف بمصر



طه حسين

الوعد الحق



دارالمعارف بمصر



PJ
7864
A28
W2

B722226

55

50

ملتمزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - 1119 كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.



« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم
الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني
لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »
صدق الله العظيم

١

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث : عودا إن شئتما
إلى أرض اليمن . أو اضربا إن شئتما في الأرض العريضة ؛ فأما أنا
فمقيم ، قد أعجبتني هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ،
ورضيت بهذه الدار فلست أبغى بها بديلاً . وما رحيلي عن أرض
وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد
الضييق ؛ قال أخوه مالك : بل قل ما رحيلي عن أرض فيها هذه
الفتاة السوداء التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك
كل شيء . قال ياسر : فظننا بي ما شئتما من الظنون ، ولكني مقيم
لن أبرح هذه الأرض ولن أتحوّل عن هذه الدار . قال الحارث :
بُعْدًا لك من فتى يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومضّر على قحطان ،
وقريشاً على عَسَس . وَيَحْتَك ؛ إنك لا تأمن أن تُسَامَ الحسَف (١)
وتُحْمَلَ على ما تكره ، ثم تلتمس العون فلا تجده ، وتبتغي النصير

(١) سامه الحسَف أذله .

فلا يجيبك إلا من يخذلك ويعين عليك . قال مالك : وإن فتاتك هذه السوداء لم تنجم^(١) من أرض مكة ولم تنزل من سماها ، وإنما جُلبت إليها فيما يجلب إليها من الرقيق ، وإن شئت وجدت أمثالها في كل منزل تنزل فيه ، وإن شئت احتلنا لك فيها حتى نخطفها وتعيش معها آمناً بين بني أبيك وذوي مودتك . قال ياسر : ضعاً هذا الأمر كيف شئتما ؛ فإنني مقيم لن أبرح هذه الأرض ، ولن أتحول عن هذه الدار ، ولن أجزى أبا حذيفة عن الحسنة بالسيئة ، ولا عن المعروف بالمنكر ، ولن أرزأه شيئاً في ماله وهو الذي قد آوانا وقرانا وأحسن مثوانا^(٢) . عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، واضربا إن شئتما في الأرض العريضة ، فأما أنا فمقيم ، وما أرى إلا أن لي في هذه الدار شأناً . قال الحارث : شأن الرقيق الذي لا يُستكسرهُ على الرق ، وإنما يسعى إليه سعيًا ويمعن فيه إمعاناً!^(٣) فإن رفق القوم بك وآثروك بالخير فشأن الخليف الذي يُعال ولا يعول . قال ياسر : عوداً إن شئتما فإنني مقيم . قال الحارث لأخيه مالك : دعه فما علمته إلا نكيداً لا خير فيه .

ورأى الصبحُ حين أسفر من الغد غلامين يخرجان من مكة

(١) نجم الشيء ظهر وطلع .

(٢) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً فنقصه . وآوانا : أنزلنا عنده في منزله وقرانا : أضافنا .

(٣) أمعن في الأمر : أبعد بالغ في الاستقصاء .

يقودان راحلة قد وهبها لهما أبو حذيفة بن المغيرة . ويسعى معهما أخوهما ياسر سعى المودع لاسعى من أزمع الرحيل (١) وكان هؤلاء الفتية الثلاثة قد خرجوا من دارهم بهامة اليمن يلتمسون أختاً لهم فقدموه . فطوفوا في الأرض ما طوفوا ، وبحثوا عن أخيهم ما بحثوا . فلما استياسوا منه عادوا إلى أرضهم . ومرّوا بمكة أثناء عودتهم . وقد بلغ منهم الجهد ، وأضناهم سفرٌ غير قاصد (٢) . فقال بعضهم لبعض : نأوى إلى هذه القرية فلم يبيتها ونسأل آلتها ونصيب فيها حظاً من راحة . ونسأل أهلها معونة على ما بقى لنا من الطريق . وأووا إلى مكة وطافوا بالبيت وسألوا الآلهة فلم يجدوا عندها شيئاً . ثم أقاموا في المسجد ينتظرون أن تغدو قريش إلى أنديةها . فيمرّ بهم ، حين يرتفع الضحى . أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي . فيرى ما أصابهم من الضر . فيضمهم إليه ويكرمهم . كما تعودت قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وكّل بخدمة هؤلاء الضيف سمية بنت خبيّاط أمة سوداء ، في أول الشباب ، عليها من الجمال نضرة قائمة بعض الشيء ، وفيها من الشباب خفة ومرح ونشاط ، وفي لسانها المستعرب عدوية حسنة الموقع في الآذان والقلوب .

فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطعامهم أول النهار ، وتروح

(١) أزمع الرحيل : حزم عليه وانتواه .

(٢) أضناهم : أمرضهم وأتعبهم . مفر غير قاصد : شاق بعيد .

عليهم بطعامهم إذا أقبل الليل ، وتعمل في خدمتهم بين ذلك ،
وتتحدث إليهم ، وتسمع منهم بين حين وحين ، وكأنها قد وقعت
في نفس هذا الفتي فحببت إليه الإقامة بمكة . ومن يدري ! لعله
أن يكون قد تحدث إليها في شيء من ذلك فأحسّ منها مثل
ما أحس من نفسه : ميل الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش .
وقد همّ الفتي أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعود مع أخويه
إلى حيث ينتظرهما أبٌ شيخ حزين وأمٌ شبيخة ملتاعة^(١) . ولكن الفتي
لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياةُ الناس ليست رهناً
بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدرّون ، وإنما هي أمورٌ خفية
يجريها القضاء ، لا يؤامر^(٢) فيها أحداً ، ثم يكون لها في حياة الناس
من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشيء الذي ليس فيه
شك هو أن الأخوين قد خرجا من مكة يقودان راحتهما يُسمّان^(٣)
تهامة اليمن ، فضاء في الدنيا وفي التاريخ ، ولم يعرف أحدٌ عنهما
شيئاً ، كما لم يعرف أحدٌ عن أخيهما الضائع وأبويهما الشيخين شيئاً .
وعاد الفتي ياسر بعد أن ودّعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيفاً
على أبي حذيفة أول الأمر ، ثم حليفاً لأبي حذيفة بعد ذلك ،
ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنذ ذلك الوقت عرفته الدنيا
وحفظه التاريخ .

(١) التاع قلبه : احترق من ألم والشوق وكانت به لوعة .

(٢) يؤامر : يشار .

(٣) يسمان : يقصدان .

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم ، فلقى وهو رائح إلى داره ياسراً غير بعيد من المسجد ، فقال له مبتسماً : ما فعل أخواك يا فتى عنس ؟ فقال الفتى : آثراً^(١) قُرب الدار على بعدها ، فعادا إلى قومهما . قال أبو حذيفة : وآثرت بعد الدار على قربها . فأقمت في مكة ! قال الفتى : بل آثرتُ هذا الحرم الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وآثرت جوار هذا البيت العتيق على ما في اليمن من ضلال وغى^(٢) . قال أبو حذيفة : وماذا تريد أن تصنع في مكة ؟ قال الفتى : أتمس القوت من مصادره . قال أبو حذيفة : فإنّ القوت ميسّر لك ما بقيت لي جاراً . قال الفتى : بأى أنت من سيد كريم تُزُهي به مخزوم^(٣) وتزدان به قریش وتعيّز به البطحاء ! إنك والله ما علمت لسخى النفس رضى السيرة ، تحفظ الضائع وتطعم الجائع ، وتعطى السائل وتغنى العائل ، وتحمى الجار وتغيث الملهوف^(٤) . قال أبو حذيفة : حسبك يا فتى ! لقد جزيت فأربيت^(٥) ، وإني لأرى فيك ذكاء ولسناً^(٥) . فأنت جار لي ما أقمت في هذه القرية .

(١) آثر : فضل .

(٢) الغى : الضلال .

(٣) العائل : الكثير العيال . الملهوف : الحزين والمظلوم .

(٤) أربيت : زدت .

(٥) اللسان : الفصاحة .

قال الفتي : لا وعداك ذم^(١) ، ولكني أدعوك إلى خبطة سواء بيني وبينك لا تشق عليك ولا تخفف عني : تحميني مما تحمي منه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربت ، وسأسماً لمن سالم ، ووقاء^(٢) لك ولأهلك من العاديات ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . قال أبو حذيفة : فهو الحلفُ إذن ؟ قال الفتي : نعم ، إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن إليه قلبي ! فإذا كان الغدُ فوعدنا المسجد . قال الفتي : فإنك من المسجد غيرُ بعيد وما أحب أن نرجعُ إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فهلمْ إذن .

وأخذ بيد الفتي ، ورجع أدراجَه خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتي : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتي متضحكاً : فأشهد عليه قومك قبل أن يتفرقوا ؛ فإن الآلهة مقيمة حيث هي لا تريم^(٣) . قال أبو حذيفة : ما رأيت كالיום فتى ذكياً أريباً^(٤) . ثم مضى به إلى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قال : يا معشر قريش .

(١) أي جاوزك ولم يصيبك ما تدم به . وهذا من أساليب العرب التي تصطنعها في الدعاء عند الخطاب .

(٢) الوقاء : الوقاية والصون .

(٣) لا تبرح ولا تنتقل .

(٤) الأريب : الماهر البصير الحاذق .



اشهدوا على أنى قد حالفت ياسر بن عامر هذا العنسى . وجعل لا يقول ذلك لناد من أندية قريش إلا قالوا له : سمعت غير مذموم ، وحالفتم غير ملوم .

فلما طوف به على أندية قريش كلها قصد به قصد الكعبة . قال الفتي : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : إلى حيث أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتي متصاحكاً : ويحك أبا حذيفة (١) ! أتظن أن الآلهة لم تسمعك وأنت تشهد الناس ؟ فهى قد سمعت وشهدت ورضيت . أم تراها لا تسمع إلا إذا دنوت منها كما يدنو الرجل من الرجل حين يريد أن يناجيه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا أنى قد حالفتم اليوم شيطاناً ! ويحك يا فتى عنس ! فإننا قد ألفتنا أن نقف من آهتنا موقف المتحدث إليها المناجى لها . قال الفتي : فقفت منها هذا الموقف حيث شئت ؛ فإنها ينبغي أن تكون معك في كل مكان . قال أبو حذيفة وقد أخذه شيء من وجوم ، كأن الفتي قد ردد إليه شيئاً غاب عنه . أو رده إلى شيء غاب عنه : فلا أقل من أن نطوف بالكعبة لئتم لهذا الحلف حقه من الحرمة والتقدير . قال الفتي : أما هذا فنعم . ثم مضى فطوقاً بالكعبة ما شاء الله أن يطوقاً بها . وراحا (٢) إلى دار أبي حذيفة حليفين . ولكن بينهما من الأمر أكثر مما يكون بين الخليف والحليف .

(١) ويح : كلمة مدح وتعجب .

(٢) راحا : عاداً .

يقول أبو حذيفة للفتي في طريقهما إلى الدار : ويحك يا عنسى !
 إنى لأرى فيك استخفافاً بأهلتنا وازوراراً عنها^(١). أفتراك لم تنس آلهة
 عنس بعد ، ولم ترد أن يخلص قلبك لغيرها ؟ فيقول الفتي : بأبي
 أنت يا أبا حذيفة ! والله ما ذكرتُ آلهة عنس قطّ فأنساها اليوم
 أو أستبى ذكرها في قلبي ، وما أعرف أنى غدوت عليها مُصْبِحاً
 أو رحت إليها ممسياً ، أو آمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد
 صبت^(٢) إذن عن آلهة آبائك إلى إله النصرى أو اليهود ؟ قال الفتي :
 لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم ، ولم أفهم عنهم ولم أحاول
 لأحاديثهم فهماً . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن ؟ قال
 الفتي : لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذى يرُوعنى ويرُوعنى^(٣) .
 أو الشمس التى تضىء لى أثناء النهار ، أو النجوم التى تهدينى
 أثناء الليل ، أو السحاب الذى يطعمنى ويسقىنى . ولكن شيئاً من
 ذلك لا يبلغ نفسى ولا يتحدث إلى قلبى ولا يثير حاجتى إلى العبادة
 والطاعة والإذعان . فأنا حائر جائر عن القصد^(٤) ، أتمس الهدى فلا
 أجد إليه سبيلاً ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم فى الدنيا مفارقاً
 لهم فى الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأناً يا فتي عنس . قال

(١) ازور عنه : عدل وانحرف .

(٢) صبت : خرج من دين إلى دين آخر .

(٣) يعجبى ويقزعى .

(٤) جار : عن الشيء مال عنه .

الفتى : كغبرى من الناس . إلا أنى أفكر فى هذا كثيراً ولا يفكرون فيه إلا قليلاً .

وبلغا دار أبى حذيفة فأنفقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل يخوضان فى أحاديث الدين والدنيا وفى أحاديث تهامة ونجد والحجاز . وقد وقع حب الفتى فى قلب أبى حذيفة موقعاً غريباً . حتى قال لنفسه ولأهله حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قطّ كما أحببتُ هذا الفتى ، ولو كنتُ متخذاً ولدأ لاتخذته ولدأ .

٣

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقيم ضيفاً على حليفه أبى حذيفة . يغدو إلى المسجد مصباحاً فيقول لقريش ويسمع منهم . ويروح إلى الدار بعد أن تزول الشمس . فلا يقيم فيها إلا ريثماً يصيب شيئاً من طعام وراحة ، ثم يخرج فيمشى فى الأسواق ، ويتعرف أمر الناس . ويلتمس أسباب الرزق ؛ حتى إذا يسرت له الوسائل للعمل والكسب أراد أن يتحول إلى دار له . وأذن^(١) أبى حذيفة بذلك . فلم ير أبى حذيفة بذلك بأساً . واكنه رأى الفتى متردداً فى نفسه . لا يقدم قلبه إلا ليحجم ، وهو يجيل طرفه فى الدار

(١) آذنه أعلمه .

فعلّ من يجد في التحول عنها مشقة وحرزاً ، قال أبو حذيفة : إني لأراك متردداً محزوناً يا فتى ، وما أعرف أنّ داري قد ضاقت بك أو أن أحداً من أهلها قد نالك بمكروه ، فما يمنعك أن تقيم فيها كما أقمت إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه متينة مطمئنة ؟ قال الفتى : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتني دارك ولا أنكرتها ، وما لقيت من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لي في دارك أرباً^(١) قد كنت أظن أنّي أستطيع السلو عنه ، ثم تبين لي أن ليس لي إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذه العجب : لك في هذه الدار أرب ! ؟ وما عسى أن يكون ؟ فأطرق الفتى قليلاً . وغشيت وجهه سحابة رقيقة عمراء^(٢) ، ثم رفع رأسه وكأنه قد أجمع أمره على شيء عظيم ؛ وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجراءة . وفيها كثير من الحياء : أمستك هذه السوداء التي تسمونها سُمَيْيَّةَ . قد وقع حبها في قلبي يا أبا حذيفة ، ولا والله ما كانت مني إليها ريبة في نظر أو حديث . قال أبو حذيفة : فتريد أن أهيا لك ؟ قال الفتى : لا والله لا أرزؤك في مالك^(٣) . قال أبو حذيفة : فإنك لا ترزؤني في مالي شيئاً ، وإنما هي أمة والإمام في الدار كثير . قال ياسر : لا والله لا أرزؤك في مالك . وما آثرتُ الحلفَ على

(١) الأرب : الحاجة .

(٢) هذا كناية عن الحمل .

(٣) لا أرزؤك في مالك : لا أصيب منه شيئاً فأنقصه .

الجوار إلا لتخفّ مؤونتي عليك ، وما أحبّ أن تقول مخزوم أقام في الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها . قال أبو حذيفة : فإن شئت زوّجتك منها . قال الفقى وقد أغرق في ضحك متصل : هيات يا أبا حذيفة! (١) أتريد أن ألدّ لك الإمام والعبيد ؟ قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفقى بيده : وياك ! لقد عنيتني منذ اليوم ، تزوّجها وما ولدت لك من ولد فهو حر . قال ياسر : بأبي أنت من سيد كريم ! ألم أقل إنك فخر مخزوم وزينة قریش وعزّ البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك (٢) ؛ فقد أسرفت في الثناء . أقبل على إذا كان المساء فتزوج ، ثم تحوّل بأهلك إلى دارك الجديدة ، وعسى ألا ترى فيها إلا خيراً .

ولم يكذب ياسر يتحول بسمية إلى داره حتى غفل عنه التاريخ دهرًا طويلًا ، كما تعود أن يغفل عن الدهماء (٣) حين تحيا وحين تموت وحين تُلمّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن يصنع التاريخ بقى من عامة الناس ودهمائها ، ليس له خطر في مكة ولا مكانة في قریش ، وإنما هو غام أجنبي حليف ، يعيش كأمثاله من هذه الأخطا التي كانت تعيش في مكة ساعية إلى رزقها أيسر السعى ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبيلا ، فإن

(١) هيات : اسم فعل معناه بعد .

(٢) حسبك : كفاك .

(٣) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أعيانها كسبُهُ وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهي مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال . لا يعدو عليها عادٍ ولا يسعى إليها . كروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، أرستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، ضئيلاً^(١) بجيلاً ومستكبراً . تعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم إلا ما كان له شأن أو خطر . وآية ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور إلا أطرافاً يسيرة ضئيلة لا تكاد تظهرنا من أمرهم على شيء : كأن التاريخ كان يراها أهونَ شأنًا وأيسرَ خطرًا من أن يمنحها عنايته . وكأنه كان يرى قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء وسادتهم أحقَّ بعنايته وأجلد برعايته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو^(٢) أعمالهم ويسجل أخبارهم . فأما سادة قريش وقادتها وذوو المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاساً ، فلم يكونوا أحرىء^(٣) أن ينظر التاريخ

(١) الضنين : البخيل .

(٢) يبلو : يختبر .

(٣) أحرىء : جمع حرى ، أى خليق وجدير .

لإبهم إلا شزراً^(١) ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكها للأجبال
المقبلة وترويح^٢ عليها وتسليه لها عن بعض ما يشغلها من الهم ، فكيف
بالدهماء التي لا تملك المال ولا تصرف التجارة ولا تقوم بأمر الآلة
ولا تدبر السلطان ، وإنما تستقسط حياتها تستقسطاً وتلقطها تلقطاً ،
وتعيش مما يلقي إليها الأغنياء والسراة من الفتات^(٣) .

وكان ياسر من هذه الدهماء ؛ فلم يحفل به التاريخ ولم يلتفت
إليه ، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجل غدوة على التماس
الرزق ، ولا رواجه على أهله بما اكتسب منه . حتى كان يوم^٤ أكثره
التاريخ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة
والقادة ، وعلى أن يسجل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر
مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملأ والسادة في قريش .
في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداث^٥ ضئيلة تحدث لا يكاد
الناس يأبهون^(٦) لها ولا يُعْمَنُونَ بها ، ولكنها لا تكاد تحدث حتى
تخفق لها القلوب وتتفتح لها العقول وتضطرب لها الضمائر . وحتى
تعرف الدهماء^٧ نفسها وتشعر بحقها وتطمح إلى هذا الحق وتسعى إليه
جادة لا وانية^(٨) ولا فاترة ، وحتى ينكر الملأ^(٩) من قريش كل

(١) نظر إليه شزراً : نظر إليه بجانب عينه مع إعراض .

(٢) السراة : جمع سرى ، وهو صاحب المروءة في شرف .

(٣) لا يأبهون لها : لا يفتنون لها .

(٤) وانية ضعيفة .

(٥) الملأ من قريش : أشرافهم وعليتهم .

شئ : يرون المستضعفين في الأرض وقد سمّت نفوسهم إلى أشياء لم تكن تسمو إليها ، وطمعت قلوبهم في أشياء لم تكن تطمع فيها . وانطلقت ألسنتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد طمحو إلى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها وجعلوا يتحدثون فيما بينهم كأنهم ليسوا أقلّ من سادتهم استحقاقاً للحياة ، ولا استنبالاً^(١) للكرامة . ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تنزهاً عما يشين^(٢) . كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه إلى تراب ، لا تمايز أجسامهم حين تولد ، ولا تمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تمايز نفوسهم وقلوبهم وضمايرهم بين ذلك ، بما تقدّم من الخير ، وما تتجنب من الشر ، وبما تتقى من الإثم ، وما تصطنع من البرّ والمعروف . ثم يتحدثون بأن نفوسهم وقلوبهم وضمايرهم تمايز بعد الموت بما تلقى من جزاء أعمالها ؛ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ثم يتحدثون فيما بينهم بأن حرية الحر لا تفضّله على غيره من الناس إلا إذا آمن واتفق وعمل عملاً صالحاً ولم يؤذ الناس بيده ولا بلسانه ولا بقلبه ، وأنّ رقّ الرقيق لا يخسّه^(٣) عن غيره من الناس ما دام يؤمن ويتقى ويحسن في القول والعمل ويبرئ قلبه من الإثم وضميره من السوء . ويتحدثون فيما بينهم بأن الحرية والرقّ ، والغنى

(١) استنبالاً : استحقاقاً .

(٢) يشين : ييبس .

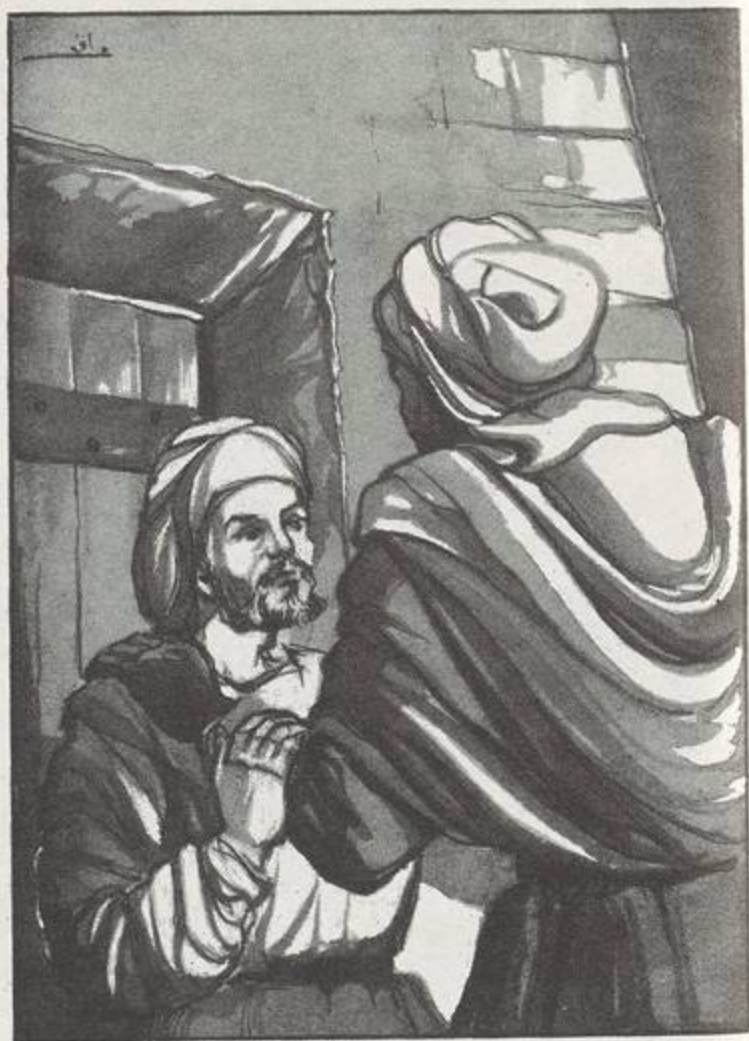
(٣) لا يخسّه : لا يجعله خسيماً دنياً .

والفقر ، والقوة والضعف ، أعراض " تعرض وتزول . ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، ولا أن تسود^(١) بعضهم على بعض . ولا أن تحكّم بعضهم في بعض . وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذي لا يأتيهم من مولد ولا من ثراء ، وإنما يأتيهم من رضا الناس عنهم وثقة الناس بهم وإيمان الناس لهم . ويحكّم الناس بأمر يأتيهم من السماء قد فصل لهم الخير والشر ، وبين لهم العرف والنكر ، ويميّز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التي توارثوها عن آباءهم ، ولا بهذه السنن التي حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضعفون في الأرض يتحدّثون إذا لقي بعضهم بعضاً أو خلا بعضهم إلى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضعفون في الأرض يتسامعون ثم يتداعون ثم يتواصون . وبهذا كله رُوّع الملأ من قريش ذات يوم ، فثار ثائره ، وفار فائره ، وأجمع أمره أن يظني هذه الجذوة قبل أن ينتشر لها فلا يبتى ولا يذر^(٢) . ونظر التاريخ ذات يوم إلى مكة فرأى فيها هذه الأحداث الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديث التي كانت تهمس بها الأفواه وتصيح بها الضمائر والقلوب والنفوس . ورأى التاريخ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وبزوجه السن ، وقد مات حليفه

(١) تسود: تجعلهم سادة .

(٢) يذر: يترك .



أبو حذيفة ، وقد رُزق من سمية ثلاثة أبناء قتل أحدهم في خطوب
مجهولة ، وبقى الآخران يعيشان كما كان أبوهما يعيش .

ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه .
ولمّا أُقبل ذات يوم على مكة ليرى بعض ما يجري فيها من الأحداث ،
فلم يكد يبلغ المسجد حتى رأى أنديّة قریش هائجة مائجة تتحدث
عن محمد وعن دعوته وعن تبعه من المستضعفين والرقيق ، وقد
تذكر دار أرقم بن أبي الأرقم التي اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه
نادياً ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروعة ؛ فتحول التاريخ عن
هذه الأنديّة الصاخبة إلى دار ابن أبي الأرقم ليرى محمداً وأصحابه
ويسمع منهم . ولم يكد يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلين :
أحدهما أسود طوأل ترتفع قامته في السماء ، والآخر أصهب ربعة^(١) .
وهما يتحاوران ؛ يقول الأسود لصاحبه الأصهب : ما تصنع هنا ؟
فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد
أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأصهب :
وأنا أيضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجلان فيسمعان ويُسلمان . ويعرف
التاريخ أن الأسود الطوأل هو عمار بين ياسر ، وأن الأصهب الربعة
هو صهيب بن سنان . ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذاك
الفى العنسى ، ويتتبع خطوات ابنه عمار .

(١) أصهب : أحر اللون أو أشقره . والربعة من الرجال : من يكون بين
الطول والقصر .

أصبح ياسر ذاهلاً وجاهلاً مشرد اللب . قد أنكر نفسه وأنكرته
 زوجته سمية ؛ فقد تعود أن يفيق من نومه قبل أن تنشر الشمس
 ضوءها على بطحاء مكة وجبالها . فلا يُريح ولا يستريح . وإنما
 يضطرب في الدار ذاهباً جاثياً كثير الحركة موفور النشاط . يتحدث
 إلى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ النائمين من أهله وولده . وهم
 ينكرون نشاطه وحديثه في أنفسهم . وربما أنكروا حركته ونشاطه
 بالسنتهم ، وطلبوا إليه شيئاً من سكون وسكوت ، فكان يعبث بهم
 ويسخر منهم ، ويلج عليهم بحديثه وحركته ، ويؤنبهم^(١) مداعباً لهم
 حتى يصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجته سمية أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً
 لهذا النشاط ؛ فلم يكن شيء أحبّ إليها من أن تستأخر في نومها
 ما وسعها ذلك ، كأنها كانت تتصور ما ينتظرها في الدار من عمل
 ستجد فيه من الجهد ما يظنها ويشقّ عليها ، فكانت تحب أن
 ترجى ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلاً . ولكن الشيخ الثرثار المكثّر
 النشيط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ والناس من حوله
 نيام ؛ فلم يكن يستقرُّ له قرار ولا يهدأ له بال حتى يثور أهل الدار

(١) أنه : عنفه ولامه .

جميعاً من نومهم ويأخذوا معه في حديثه الذي لا ينقضي ، يسمعون له كثيراً ويقولون له قليلاً .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشد الاختلاف ، ترُوع بغيراتها وطرافتها وإثارتها للشوق إلى الاستزادة والرغبة في الاستطلاع . فقد كان ياسر لا ينفك يروى غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد في تهامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة في تجارة مخزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً . ولم يكن أحدٌ أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها^(١) . ولم يكن أحدٌ أشد منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يثنى عليهم ، ولا يعفيهم من نقده اللاذع^(٢) الذي كان يصادف هوياً في نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأى شيء أحب إلى دهماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يَسْرُ وما يسوء ، وبما يَرْضَى وما يُسْخَطُ ! وكان ياسر إذا أخذ في الحديث عن قريش أمعن فيه ، واستهوى أفئدة سامعيه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنه أفاق من نومه ذلك اليوم ، فلم يثر من مضيجعه ، ولم يتحرك لسانه في فمه ، وإنما ظل مستلقياً مكانه لا يتشط ولا يقول ، ولا يدعو غيره إلى نشاط أو قول .

(١) المناقب : المفخر . والمثالب : المعايب .

(٢) اللاذع : المؤلم ، القارص .

وأخذت سمية حظَّها من نوم الصباح كما لم تتعود أن تأخذه قط .
ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذي لم يتعود هدوءاً . وصمَّت
هذا الذي لم يألف صمتاً . فتنقَّبيلُ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام
والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف ، فتسأله ما خطبه ؟ وهل
يجد شيئاً يكرهه ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بي بأس ،
ولستُ أجد ما أكره . قالت سمية : فمالك لا تملأ الدار علينا
ضحيجاً وعجيجاً ؟ قال ياسرٌ وقد جعل صوته يمتلئ ويقوى شيئاً
فشيئاً : ويحك يا سمية ! كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إن أنشطُ
قلت : هلاًّ خليت بيني وبين النوم ، وإن أسكنُ قلت : هلاًّ ملأت
الدار علينا ضحيجاً وعجيجاً^(١) ! أها إني لم أهدأ حباً في الهدوء .
ولم أسكن إيثاراً للسكون ، وإنما رأيت رؤيا روعتني عن النشاط
والقول . قالت سمية وقد ثاب^(٢) الأمنُ إلى قلبها وصرَّح وجهها الأسود
المتجعد عن رضا لا تكلف فيه — قالت وهي متصاحكة : فهلاًّ
رأيت من آخر كل ليلة رؤيا ترّوعك وتشغلك عن النشاط والقول !
ذلك أجدرُ أن يتيح لي من الراحة والدعة ما أنا في حاجة إليه .
قال ياسر — وقد همَّ ثغره أن يبتسم ووجهه أن يشرق . ولكن الرّوع
لم يلبث أن رده إلى الجِدِّ والصرامة — قال : ويحك يا سمية ! إنها

(١) الضجيج والمجيج : الصياح والجلبة .

(٢) ثاب : عاد .

رؤيا ليست كالرؤى ، وما أرى إلا أن لها شأنًا ! فما أكثر ما عرضت
 لى الأحلام ، وما أكثر ما انصرفت عنى حين أفيق ! ولكن هذه
 الرؤيا قد تركت فى قلبى وعقلى وأمام عيني صورة مُلححة لا تريد أن
 تريم^(١) . قالت : فقص رؤياك ، لعل حديثك عنها أن يُريحك منها .
 قال ياسر : هيهات ! ثم استوى جالساً فى بطاء وأخذ يقص رؤياه
 مستأنياً . ولم يكده يمضى فى حديثه قليلاً حتى رُوعت زوجته ،
 وهمت أن تكفه عن الحديث ، لولا بقية من شجاعة وفضل من
 حياء . قال ياسر : لن أقص عليك رؤيا ، ولكنى سأصف لك
 صورة رأيتهانماً وما زلت أراها يقظان : واد ليس بالمسرف فى
 السعة ولا بالمسرف فى الضيق ، وإنما هو وسط بين ذلك ، يأخذ
 جانبيه جبلان عظيمان يرقى إليهما الطرف ولكنهما لا يبلغ أعلاهما .
 وقد تشقق الجبلان عن فجوات عميقة أراها ولا أحصيها ، والنار
 من هذه الفجوات يسعى بعضها إلى بعض ، حتى تلتقى وحتى يسيل
 بها الوادى كما يسيل بالماء . وفى أقصى هذا الوادى من أمامى مروج
 خضر تجرى فيها مياه عذاب لا تبلغها هذه النار ، وإنما تقف
 قبل أن تنتهى إليها ، وأنت قائمة فى هذه المروج الخضر قد رد
 عليك شبابك وأشرق وجهك حتى كأنه الشمس ، وأنت تبسمين
 لى وتدعيني باللحظ واللفظ ، وتشيرين إلى بالبنان . ومن ورائى

(١) تريم : تبعه وتزول .

عمار يَحْنِي على أن أفتحم النار ، ويقول في صوت يشيع فيه الخنان :
 أقدم يا أبت ، فليس عليك بأس ، إنما هي لفحة أو لفحات^(١) ،
 ومن ورائها هذه الرياض الخضر ! وسمية قد رُدَّ عليها شبابها ،
 وشبابك ينتظرُك إلى جانبها ليُرَدَّ عليك . وأنا أسمع دعاءك . فأهم
 أن أفتحم النار ، ولكن لَنَفْحَمَهَا يوقظني . ثم يضرب الشيخ جبهته بيده
 صائحاً : ويلاه ! إني لأجد مس النار ؛ قالت سمية وقد أقبلت
 عليه مرتاعة ملتاعة : وَيَحْك ! لا بأس عليك ! قم فأصب شيئاً
 من طعام ، ثم اخرج فاقصص رؤياك هذه المروعة على بعض
 كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلاً .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد
 عبرت نفسها ، وحتى وجد ياسر مس النار .

٥

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادى بنى مخزوم
 التي التحية وجلس ، ولكنه لاحظ أن وجوه القوم لم تهش له ،
 وأن أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما ردَّ بعضهم عليه تحية
 فاترة . ومضى بعضهم في حديثه كأنه لم يلق إلى هذا الطارئ بالآ .

(١) لفحته النار : أصابت وجهه وأحرقته .

فأسر ياسرٌ في نفسه بعضَ الموجدة^(١)، ولكنه لم يطلٌ عندها الوقوف؛ فهو يعلم أن في مخزوم صلفاً^(٢) وأنفةً وكبرياءً. ولولا وفاؤه بخالفه لمكان أبي حذيفة من قلبه، لتحوّل عن مخزوم إلى حى آخر من أحياء قريش. ولكنه وفى لأبي حذيفة بعد موته كما وفى له أثناء حياته. ولم يكن له من هذا الوفاء بدءٌ؛ فأبو حذيفة قد حفظه بعد ضيعة، وأمنه من خوف، وزوجه سمية أحبّ الناس إليه وآثرهم عنده، وأعتق له ولده منها قبل أن يولدوا، ثم لم يمت حتى ردّ إلى سمية حريتها، فأصبحت دارُ ياسر دارَ حرية كاملة، بعد أن كانت داراً نصفها حرٌّ ونصفها رقيق.

وكان ياسر قد أقبل على نادى مخزوم وفي نفسه أن يقص عليهم رؤياه تلك التى أهمته وروّعته، يطرفهم بها من جهة، ويلتمس عندهم لها تأويلاً من جهة أخرى، فلما رأى منهم الفتور والإعراض أمسك لسانه فى فمه، وجلس صامتاً لا يقول شيئاً. وكانت مخزوم قد عودت ياسراً ألا تراه فى ناد من أنديةها أو دار من دورها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث. ولكنها تلقته فى هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره، لا تسأله حديثاً ولا تسوق إليه حديثاً. ولولا أنه تعود أن يستأنى^(٣) بهؤلاء المستكبرين حتى يثوبوا إليه فيعبث بكبرياءهم

(١) الموجدة : الغضب .

(٢) الصلف : التمدح والادعاء والتكبر .

(٣) استأنى : تنظر وترفق .

وَيُسْمِعُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَجِبُونَ أَنْ يَسْمَعُوا ، لَانصَرَفَ عَنْهُمْ إِلَى نَادٍ آخَرَ مِنْ أُنْدِيَةِ قَرِيْشٍ . وَلَكِنَّهُ أَقَامَ صَامِتاً مُسْتَأْنِياً يَدِيرُ فِي نَفْسِهِ الْإِنْتِقَامَ مِنْ هَذَا الْفِتْوَرِ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْتَظِرْ طَوِيلاً قَبْلَ أَنْ يَسَاقَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ : فَهَذَا عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ يَسْأَلُهُ فَجْأَةً : مَا أَخْرَكَ الْيَوْمَ عَنَا يَا يَاسِرَ ؟ قَالَ يَاسِرٌ مَدَاعِباً : فَقَدْ كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِي (١) يَا أَبَا الْحَكَمِ ؟ قَالَ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ وَهُوَ يَكْتُمُ الْغَيْظَ فِي نَفْسِهِ : أَجَلٌ ، كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ عُجْمِي (٢) عَلَى مَنْ أَمْرُكَ . قَالَ يَاسِرٌ : وَمَا ذَلِكَ ؟ قَالَ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ : ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَرُكَ قَطُّ تُقْرَبُ (٣) إِلَى آلِهَتِنَا ، وَلَمْ أَسْمَعْكَ قَطُّ تَذَكَّرَهَا بِخَيْرٍ . قَالَ يَاسِرٌ مُتَضَاحِكاً : فَهَلْ سَمِعْتَنِي قَطُّ أَذْكَرُ آلِهَتِكُمْ بِسُوءٍ ؟ وَهَلْ رَأَيْتَنِي قَطُّ آتِي مِنَ الْأَمْرِ مَا يُوْذِيهَا ؟ قَالَ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ : فَهِيَ إِذَنْ آلِهَتُنَا نَحْنُ ، وَلَيْسَتْ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ؛ قَالَ يَاسِرٌ : وَمَا تُرِيدُ إِلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ وَقَدْ ظَهَرَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ وَفِي صَوْتِهِ جَمِيعاً : أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ مَنْ هُوَ مَعْنَى وَمَنْ هُوَ عَلَيْنَا ؛ فَفَقَدْ آتَى لِكُلِّ مَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ أَنْ يَصْرَحَ عَنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَأَنْ يَبْدِيَ دُخِيَالَةَ ضَمِيرِهِ . وَلَقَدْ عَفَوْنَا لِأَحْلَافِنَا عَنْ كَثِيرٍ ، وَلَكِنَّا لَنْ نَعْفُو لَهُمْ مِنْذُ الْآنَ عَنْ شَيْءٍ . قَالَ

(١) الإني : التأخر والإبطاء ، أي في حاجة إلى أن أتأخر وأبطئ .

(٢) عمي عليه الأمر : التيسر وخفي .

(٣) تقرب : تقدم القرابين ، والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة

ياسر : أمسيك* عليك نفسك أبا الحكم ! فإنك لم تر مني ولم ير قومك مني سوءاً منذ حالفك عمك أبا حذيفة على أن أكون سلباً لمن سالمته وحرماً على من حاربته . وإني لأسمع الآن منك حديثاً لم أسمع مثله منذ أويت^(١) إلى حرمكم هذا . قال عمرو بن هشام وقد اندفع في ضحك يصور الغيظ أكثر مما يصور الرضا : فأنت حربٌ على ابنك عمار إذن منذ اليوم ؟ قال ياسر : أبين أبا الحكم ؛ فإني لا أفهم عنك منذ اليوم شيئاً قال عمرو بن هشام : ألم تعلم أن ابنك قد صبأ^(٢) أمس وآمن لحمد وأصحابه ؟ هنالك صعبق ياسر ، فانهقد لسانه واصفر وجهه وجعل جبينه يتفصد^(٣) عرقاً . وهنالك جعل سادة مخزوم يتنازضون نظراتٍ سراعاً فيها من العجب أكثر مما فيها من السؤال . وهم عمرو بن هشام أن يتكلم ، فقال له عمه الوليد ابن المغيرة : حسبك يا ابن أخي ! ارفق بهذا الشيخ فإنك قد ترى ما نزل به ، وليس عليه من جرائر^(٤) ابنه شيء ؛ فقد جاوز ابنه سن الأربعين .

وجعل السادة من مخزوم يعيدون على عمرو بن هشام مقالة الوليد . وجعل رُشدُ ياسر يثوب إليه في أثناء ذلك قليلاً قليلاً .

(١) أوى البيت وإلى البيت : نزل فيه .

(٢) صبأ : خرج من دينه إلى دين آخر .

(٣) يتفصد عرقاً : يسيل عرقاً .

(٤) الجرائر : جمع جريرة ، وهي الذنب والخنافية .

فلما آنس من القوم صمتاً قال لعمر بن هشام : بئس ما لقيتَ به . حليفك يا أبا الحكم ! إني لم أر عمارةً أمس ، ولم أره اليوم . ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقتَه . وإنك لتضع العُنفَ في غير موضعه وتلوم غير ملوم . فهلا عَسَفْتِ بالأرقم بن أبي الأرقم ، وهو مثلك سيد من سادات مخزوم ، وهو قد صبأ قبل أن يصبأ عمار إن كان عمار قد صبأ ، وهو قد جعل داره نادياً لمحمد يلقي فيها أصحابه وينشر منها دعوته ويذكر فيها آلهتكم بما تكرهون ! ولكنك خيفتَ الأرقم بن أبي الأرقم ؛ لأن بنى أبيه يقومون دونه^(١) إن أردته بمتكروهه . فأما حليف عمك أبي حذيفة فليس هناك ! فلو قد كان أبو حذيفة حياً لفكرت وقدّرت قبل أن تلقاني هذا اللقاء . قال ذلك ونهض متثاقلاً حزيناً منكسر النفس ؛ ففضى إلى داره وترك بنى مخزوم يتلاومون .

٦

ولم يكده يبلغ داره ويسلج من بابها حتى أنكر من الدار ومن أهلها كل شيء ؛ فقد رأى زوجه سمية فرحة مريحة ، قد أشرق وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقاه مبتهجة النفس منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تثب إليه وتتعلق به

(١) يقومون دونه : ينصرونه ويدفعون عنه .

تُلقي إليه في صوت مبتهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة .
 أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دهشاً :
 لآخرة ! ما الآخرة ؟ ماذا تقولين ؟ إني لأعيش عيشة منكرة منذ
 اليوم ، تُروِّعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار .
 قال عمار : أبشر يا أبت ؛ فقد جئتك بخير الدنيا والآخرة . قال
 ياسر : أمفصح أنت عما تريد ؟ ألم أحدث أنك قد صبأت !
 ويلك^(١) ! ماذا جنيت على أبويك ؟ ! قال عمار وهو يتضحك
 رفقاً بأبيه : بل قل : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيت لكما
 خير الدنيا والآخرة . لقد حدثك من حدثك بأني صبأت ، فإني
 لم أصبؤ ، وإنما أسلمت لله الذي خلق السموات والأرض والشمس
 والقمر والنجوم ، وأرسل إلينا محمداً يهديننا سبيلنا ويبصرنا بأمرنا
 ويخرجنا من الظلمات إلى النور . ومن الجهالة والضلالة والغى إلى
 الحكمة والهدى والرشد ، ويبشِّر من آمن واتقى بأن له رضا الله عنه
 ما عاش ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت ، وينذر
 من كذب وعصى بأن عليه لعنة الله حياً ، وبأن له نار جهنم يصلها^(٢)
 خالداً فيها بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت
 تنفذ إلى قلبه دون أن تمر بأذنيه ، وقد جعل وجهه يُشرق شيئاً فشيئاً

(١) الويل : الهلاك ، ويدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها .

(٢) يصلها : يقاسى نارها ويحترق بها .

حتى استحال كله نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى
تهالك وكاد ينهار لولا أن أسرع إليه ابنه وامرأته فأسنداه وأجلساه
وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطفان له ، يمسح عمار رأسه وتمرّ سمية يدها
على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرك لسانه في فمه إلا بهذه الكلمات :
فهو ذلك إذن ! فهو ذلك إذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا
تقول يا أبت ؟ قال ياسر وقد احتبست في حلقه عبرة لم يسب صوته
منها إلا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تسحّان على وجهه دموعاً
غزاراً - قال ياسر : هو ذلك إذن ! لقد أذكرتني يا بني حديثاً
كان بيني وبين أبي حذيفة حين أملت بمكة ولم أكد أجاوز
العشرين . أراد أن يخالفني عند آلمته فأبيت عليه ، فلما سألتني
عن ذلك ذكرت له أني لو كنت متخذاً لهاً لعبدت البحر الذي
يخيفني ، أو الشمس التي تضي لي ، أو النجوم التي تهديني .
ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث إلى نفسي ولا يثير
فيها رغباً ولا رهباً . فقد أنبأك محمد إذن بأن لهذه الآيات كلها
خالقاً فطرها ودبر أمرها ، هو ذلك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة
طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهل من عينيه غزاراً وهو يقول :
هو ذلك إذن ! ومن أجل هذا آثرت بعد الدار على قربها ، واخترت
أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عنس .
وتركت أخوتي يعودان إلى تهامة ، وأقمت أنا في هذه البطحاء .
ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبك هو

الذى دعانى إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه ، وقد كَفَّتْ عيناه عن البكاء وجعلت قَطَرَاتٍ من دمه تتلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تَصْصِحْنَا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار هلم الآن إن شئنا .

وأقبل المساء من ذلك اليوم وإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحرار مخزوم ورقيقها ، فوضعوا عماراً وأبويه في الحديد ، وأشعلوا في دار ياسر النار . يقول ياسر لسبية والقوم يَعْتَلُونَهُمْ^(١) إلى حيث يجلسون : انظري سمية ، هذا أول النار التي عرضتها على الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنة فيها نعيم ورضوان للذين صدقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم إليه .

٧

واجتمع الملأ من قريش في المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتحدثوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا في هذا الحدث العظيم الذى ابتكره قى مخزوم في هذا البلد الآمن الذى ليس لأهله عهد بتحريق الدور على أهلها ، ووضع الرجال والنساء في الحديد وإذا قههم ألواناً من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقتروا من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تنكره وتعاقب عليه . يقول الوليد بن المغيرة لأبى جهل عمرو بن هشام : ويضحك يا ابن أخى !

(١) عتله : جره جراً عنيفاً وجذبه فحمله .

لقد أحدثت في هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم تؤامرنا فيما صنعت ، ولم تصدُر عن ذوى أحلامنا ^(١) ولا عن أولى الرأى من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفك الغرور ، وتبعك السفهاء من فتياننا والمحمقون من رقيقنا . وإني لأخشى أن يكون لهذا الحدث الذى أحدثته ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم في نفوس العرب مكانته : يأمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون فيه ما لا يجدون في غيره من الدعة والسعة والطمأنينة والرخاء . فكيف إذا تسامعت العرب بأن الذين يأوون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية . وإنما تحرق عليهم دورهم ويوضعون في الحديد ويسامون سوء العذاب ! وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قريش وسفهاءها قد بغوا وطمغوا وأصبحوا لا يحفلون بالملأ ولا بدوى الأحلام والرأى من قومهم ، وإنما يركبون رءوسهم ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم لا يحفظون للجار عهداً ولا يرعون للأجى حرمة ! أما إني مشير على مخزوم بأن تطلق هؤلاء الأسارى وبأن تنصفهم منك ومن أصحابك . قال أبو جهل عمرو بن هشام وقد انتفخ سحره ^(٢) وورم أنفه وصعد الدم إلى وجهه وجعلت عيناه تقدحان شرراً : هيات ، لا واللوات

(١) تؤامرنا : تستشيرنا . ولم تصدر عن ذوى أحلامنا : لم تفعل ما نعلت عن رأى العقلاء فينا . الأحلام : العقول .

(٢) السحر : الرقة . وانتفخ السحر كناية عن مجاوزة القدر .

والعزّي لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمٌ هذا السيف في هذه اليد .
 وإني لأعلم أني أحدثت في هذا الحرم ما لا عهد لأهله به ، ولكنك
 تعلم يا عم أن محمداً قد سبقني فأحدث في هذا الحرم ما لا عهد
 لأهله به . قال الوليد في رفق : وَيَحْكُ يَا ابْنَ أَخِي ! فإن محمداً
 لم يحرق داراً ولم يعنف بأحد ولم يضع أحداً في الحديد . قال
 أبو جهل : بل هو فعل شرّاً من ذلك ، إنه أفسد علينا الرقيق ،
 وأفسد علينا الدهماء^(١) ، يغيرهم بأهتنا ، ثم لا يكفيه ذلك فيغيرهم
 بأموالنا ومرافقتنا ويطمعهم في مراتبنا ومنازلنا التي توارثناها ، ثم لم
 نخلد إليها ، وإنما نبذل في الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد
 ألم تر إلى هؤلاء الرقيق الذين اتبعوا محمداً يزعمون أنهم رجال أمثالنا ،
 وأن لهم مثل ما لنا من الحق ، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ،
 وأنهم أكرمٌ منا عند الله منزلة وأرفع منا عنده مكانة ؛ لأنهم يخاصون
 له قلوبهم ويؤمنون به وحده لا يشركون معه اللات والعزى ومناة
 وهبيل ! فهم أولو الرأي والحلم ، ونحن السفهاء والمحمقون ! ويحك
 يا عم ! إنكم إن تركوا محمداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه في أرض
 مكة لا تزيدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيعوا ما
 أورثكم آباؤكم من العزّ والجد ومن الثراء والسلطان . وأيهما شرّ : أن
 تتسامع العرب بأن الحلما من أهل مكة يزجرون السفهاء ويردّونهم
 إلى القصد ، أم أن تتسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد

(١) الدهماء : جماعة الناس وعاجتهم .

أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا رقيقاً ، وبأن الآلهة التي يحجّون إليها من أقصى الأرض قد أصبحت هزواً وسخرية ؟ ! لا والله لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمٌ هذا السيف في هذه اليد . قال أمية بن خلف : وَصَلْتِكَ رَحِمٌ يَا أبا الْحَكَمِ ! والله لقد سعيت فأحسنست السعي أمس ، ولقد قلت فأحسنست القول اليوم . وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٌ في جنب هذا الحى من قريش ، ولن يستقيم لهذا الحى أمره حتى تُسْنَزَعَ من جنبه هذه الشوكة . ولو قد بلا عمك من رقيقه وأحلافه مثل ما بلوت أنا من بعض أتباعي لما اشتط عليك في القول ، ولما ألح عليك باللوم منذ اليوم . وإن الذى صنعت بأسارك من أحلاف مخزوم ورقيقها أمس قد صنعتُ مغلّه بقوم من أحلاف جُصَحَ ورقيقها . ولا والله يا معشر قريش ما لكم من أمركم خيرة ، وإنما هى الحرب المنكرة قد حُصِلَتْ إليكم ونُصِبَتْ عليكم فى عُنُقِ دَارِكُمْ^(١) ؛ فإن أردتم أن يصح ما لكم نهياً لعبيدكم وإمائكم والطارئين عليكم من أوشاب العرب وأحلاط الناس ، وإن أردتم أن يفقد هذا البيت حرّمته ، وتفقد هذه الآلهة ذكرها الطائر فى الآفاق ، وتصدّ العرب عن الحج إليكم واللياذ بكم ، وتصبحوا أهدوثاً فى الأفواه وسمراً للسامرين ، فحذّلتوا بين محمد وأصحابه وما يريدون . وإن أردتم أن تمسكوا عليكم أموالكم ، وتحفظوا على الآلهة سلطانها ، وتكفلوا لهذا الحرم ذكره بين الناس ، فشدوا على

(١) عقر الدار : وسطها وأحسن مكان فيها .

أيديكم^(١) . وردوا على أنفسكم فضل أحلامكم ، واستقبلوا أمركم
 بالخرم والجد ، وكفؤوا هؤلاء السفهاء عما أمعنوا فيه من الفساد .
 قال أبو سفيان صخر بن حترَب : أما إني لا آمن أن أمضي بتجارتكم
 غداً إلى الشام أو إلى اليمن ، وأن أعود إلى هذا البلد بعد أشهر فأرى
 أصحاب الأموال وقد شردوا وأزيلوا عن أماكنهم . يا معشر قريش
 إن التجارة خير ، وإن فيها لربحاً وسعة ، ولكن التجارة ليست مربحة
 إذا لم يُحتمَ ظهرها . ويحكم ! إنكم تصانعون العرب لتحملوا طريق
 تجارتكم إلى الشام واليمن ، فكيف إذا عجزتم عن حماية تجارتكم في
 مستقرها ! أما إني لن أبرح الأرض بتجارتكم حتى أعلم أنكم
 ستحمون ظهري ، وأني سأعود إلى مكة فأرى أهلي كما تركتهم آمنين
 وادعين لم يرزوا^(٢) في أنفسهم ولا في أموالهم . قال الوليد بن المغيرة
 متصاحكاً : ويحكم ! كأنما أطرت بما قلت لابن أخي طائراً كان
 في صدورك^(٣) ! ها أنتم هؤلاء قد أفسد الخوف عليكم أمركم وأخرجكم
 الذعر عن أطواركم ، فأكبرتم من أمر هذه العصبه صغيراً ، وعظمت
 من شأنها حقيراً . إنهم ما علمت لوادعون يتحدثون بأحاديثهم فيما
 بينهم . لم يبادوكم بشر ، ولم يترزعوكم في مالكم قليلاً ولا كثيراً .
 قال أبو سفيان : فتريد أن ننظرهم^(٤) حتى يفعلوا ؟ قال أبو جهل :

(١) شد على يده : أعانه وقواه .

(٢) يرزوا : يصابوا .

(٣) أي هيجت غضبه وأثرته .

(٤) ننظرهم : نمهلهم .

فإني أريد أن أستأصل هذا الشر قبل أن يستفحل . امض أبا سفيان
بتجارتنا حيث شئت ؛ فإن عليّ أن أحمي ظهرك وأن أحفظ لك
مكة كما تحب أن تكون . قال عتبة بن ربيعة : يا معشر قريش :
كلكم قال فأحسن القول . إنا والله ما نرضى أن تُسَمِّهَ أحلامنا ولا أن
تعاب آهتنا ولا أن تتعرض أموالنا لشر ، ولكن لنا في القصد والعافية
ما يغنيننا عن العنف والبطش ؛ فلنؤدّب سفهاء^(١) قومنا بالأناة واللين ،
ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدّة والعنف ؛ فإننا إن فعلنا ذلك نقرّر
السلم في ذات بيننا ، ونجعل من الرقيق والأحلاف مثلاً وعبرة
ونكالا . قال أبو جهل : وهل فعلتُ غير هذا ؟ إني واللوات والعزى
لو أطعت نفسي لقتلت الأرقم بن أبي الأرقم ، ولحرقت داره على
من فيها ، ولوجدت في ذلك شفاء لنفسي أيّ شفاء ! ولكني أوثر
العافية في مخزوم ، وأتخذ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نكالا
للصائبين^(٢) من قريش . قال الوليد بن المغيرة وهو ينهض متثاقلا
ويضحك ساخراً : بنس والله ما تصنع يا ابن أخي ! إنما يقيس
القوى قوته إلى الأضراب والنظراء^(٣) ، فأما أن يقيسها إلى الأحلاف
والرقيق والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والحرق^(٤) . ولكن
لا رأى لمن لا يطاع .

(١) السفهاء : الجهلاء .

(٢) الصائبون : الذين خرجوا من دين إلى دين آخر .

(٣) الأضراب والنظراء : المتأثلون المتشابهون .

(٤) الحرق : ضعف الرأي وسوء التصرف والجهل والحمق .

وتفرقت قريش فذهب أكثر الملائ إلى دورهم إلا أبا جهل .
 فإنه ذهب في عصابة من الفتية والرقيق فاستخرج أساراه من محبسهم
 ذلك الذي أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتعجل خطوهم .
 وأنى للمقيد أن يسرع الخطو ! ولكن أبا جهل وأصحابه كانوا يخزونهم
 بالرماح والخناجر وخزاً^(١) يؤذى ويؤذي ويسشق ، ولكنه لا يبلغ
 الأنفس ، وربما ألهبوهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا الحية ياسر
 وعمار وشعر بسمية وهم يتصاحكون ويتصايحون ، والناس ينثالون^(٢)
 عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكأنّ الأسارى
 قد تحدثت نفوسهم وسكنت ألسنتهم ، فأجمعوا ألا يرفعوا صوتهم
 بشكاة وألا يظهروا ألماً ولا ضجراً .

ومضوا كذلك ، حتى إذا بلغوا مكاناً في البطحاء وقف أبو جهل
 ووقف الناس معه ، ثم تقدم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً
 منه : أباق أنت على حلقك لمخزوم كما حدثتنا أمس ؟ قال ياسر :
 فإنك قد أخرجتنا من هذا الخلف حين بغيت علينا^(٣) ، فألقيت عنا
 عيبثته ووزره^(٤) . قال أبو جهل : فقد برئت من حلفنا إذن ؟ قال
 ياسر : كلا أبرأ من الشر والنكر وما يخزي الرجل الكريم . ولم يمهل
 أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عمار

(١) الوخز : الطعن بالرمح لا يكون نافذاً .

(٢) ينثالون : يقبلون بكثرة متتابعين .

(٣) بغى عليه : استطال عليه وظلمه .

(٤) عيبه ووزره : حملة الثقل وذهبه .

وسمية حتى أدموهما . ثم تقدم^(١) أبو جهل إلى أصحابه أن يطرحوا هؤلاء الأسارى أرضاً ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يأخذوهم بمكاوى النار^(٢) في جنوبهم وصدورهم ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يضعوا على صدورهم الحجارة الثقيل ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يصبوا على وجوههم قرب الماء ففعلوا ، وأبو جهل ينتظر متحرق النفس أن يسمع من أحدهم صيحة أو أنه أو شكاة . ولكن نفوس الأسارى قد تحدث بعضها إلى بعض وفهم بعضها عن بعض ، فعدوا السنهم وعمروا قلوبهم بذكر الله ، وخلوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها ما يريدون . وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى ملوا العبث وضاقوا به ، ففترقوا عنهم بعد أن وكتلوا بها حراساً يحفظونهم على حالهم تلك حتى يعودوا إليهم حين تعجنح الشمس إلى الغروب .

٨

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جدعان : ما رأيت كغلامك الرومي هذا ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وبراعة في التجارة ومهارة في تمييز المال . قال عبد الله بن جدعان . أما إذا قلت هذا فإني لا أدري أعربي هو سبته^(٣) الروم صبيهاً حين أغارت على أرض الفرس

(١) تقدم إليه أن يفعل كذا : أمره به .

(٢) يأخذهم بمكاوى النار : يكوئهم بالنار ويعذبهم بها .

(٣) سبته : أمرته .

كما يقول ، أم روميّ هو سبته العرب حين أغارت مع الفرس على أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لي عام أول في الشام . قال حرب بن أمية : إن فيه حمرة لا تعرفها العرب ، وإن لسانه يرتضخ لهجة رومية طالما سمعت مثلها في كثير من أهل الشام . فليكن عربياً أو ليكن رومياً فليس لذلك شيء من الخطر ، ولكني لم أر مثله قط ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وحسن نظر في التجارة وتثمير المال . لقد رأيت في رحلتنا تلك إلى اليمن وحين عبرنا البحر إلى بلاد الحبشة شيطاناً من الجن يتنسم^(١) مصادر الريح وموارد الكسب ، وينبئنا غير مكذّب بأننا إن ذهبنا إلى هذا الوجه أو أقمنا في هذه القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء . ولست أدري كيف تنسم ريح الريح في بلاد النجاشي ، فاتصل برجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطون فيما بينهم رطانة رومية ، فباعهم كل ما كان معنا ، واشترى منهم ما لم تكن نطمع في شرائه ولا نقدر على حمله ، واحتال حتى أعادنا إلى مكة في السفن التي تمخر البحر لا على ظهور الإبل التي تسبح في البر . وأشد من ذلك وأدنى غرابة من ذلك إلى العجب أنه ألتني في روع^(٢) أولئك الناس أنهم يستطيعون إن شاءوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون إليه من المال ليشتروا منا إذا بلغنا أرضنا ما يملثون به سفنهم حتى

(١) تنسم الشيء : تشمه ليعرف مصدره .

(٢) الروع : سواد القلب وموضع الفزع منه ، والذهن ، والعقل .

لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغنانا في موسم واحد عن رحلتين ، بل عن أكثر من رحلتين . قال عبد الله بن جُدعان : إنه ما علمتُ لـغلامٌ صنَّعٌ^(١) ميمون النقيبة ، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكني لم أر منه إلا خيراً .

وخلا عبد الله بن جُدعان مساء ذلك اليوم إلى غلامه ذلك الرومي الذي سبته العرب ، أو العربي الذي سبته الروم ، فقال له : لقد أحسنت البلاء يا صُهب يا رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة ، ولو لم يثن عليك حرب بن أمية لأثني عليك هذا المال الكثير الذي رجعت به إليّ . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صُهب : هيهات ! ما أعلم أني بعث أو اشتريت قبل رحلتي هذه إلا ما يبيع الناس ويشترون من حاجتهم التي تصلح أمرهم في كل يوم . قال عبد الله بن جدعان : فهي الفطرة إذن ؟ قال صُهب : هو ذلك . وأطرق عبد الله بن جدعان ساعة ، وهم صُهب أن ينصرف ، ولكن سيده استبقاه بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغلام أو كاد . ولكن عبد الله بن جدعان يرفع رأسه ويبسم للغلام ويقول في تحفظ وهدوء : أضائقُ أنت بالرق يا صُهب ؟ قال صُهب : وون ذا الذي لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حرّاً ! قال عبد الله بن

(١) غلام صنَّع : ماهر حاذق . ميمون النقيبة : محمود المختبر .

جدعان : فإني أريد أن أرد عليك حريرتك ، وأن أملكك أمر نفسك^(١) ، ولكن بعد أن أعرضك لمحنة ذات خطر . قال صهيب : فأمسك^(٢) عليك حريرتك هذه التي تريد أن تردّها عليّ ؛ فإن الحرية لا تباع ولا تشتري . قال عبد الله بن جدعان : ويحك يا صهيب ! ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بني كلب ، واشتراك بنو كلب من الروم أو من العرب لا أدري . قال صهيب : فإنك لم تشتري ، وإن بني كلب لم يشتروني من نفسي ، وإنما عدا عليّ العادون فباعوني من بني كلب ، وباعني بنو كلب منك على كره مني لا عن رضا ولا عن اختيار . فأنتم ترونني عبداً قنناً وأنا أراني رجلاً حرّاً ، وأنتم تتسلطون على جسمي بما تملكون من قوة ومال وساطان ، ولكنكم لا تجدون لأنفسكم على نفسي سبيلاً . قال عبد الله بن جدعان : فما أكثر الرقيق الذين يكاتبون^(٣) على أنفسهم ويشترون حريرتهم بالأموال والأعمال ؛ قال صهيب : هم وما يصنعون ، أما أنا فلن أكاتب ولن أشترى حريرتي بمال أو عمل ! لأني ما زلت أراني حرّاً في نفسي . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ، إنك لذكي القلب جرى الجنان ، ولكني أريد . . . قال صهيب : تريد أن تمتحنني ! فإن سلطانك عليّ يبيع لك أن تعرّضني لما شئت

(١) أملكك أمر نفسك : أصيرك حرّاً .

(٢) مكاتبه الرقيق : أن يكتب العبد على نفسه بشئنه ، فبإذاه سمي وأداه عتق .

من محنة ! ففرني بما شئت فستراني عندما تحب ، ولكن لا تَعِدْني شيئاً ! فأني لا أكره شيئاً كما أكره الأمانى والوعود .

وهمّ عبد الله بن جدعان أن يردّ عليه رَجَعَ حديثه ، ولكن صُهيّباً لم يمهله ، وإنما قال له متعجلاً : وهل لك في أن أخفف عنك بعض هذا العبء الذى ينوء بك^(١) ، وأن أفصح لك عما يضيق به صدرك ولا ينطلق به لسانك ؟ قال عبد الله بن جدعان : وإنك لتعلم دخائل الصدور ؟ ! قال صهيّب : لقد نجحت في رحلتى إلى اليمن وأرض النجاشى ، وجلبت إليك مالا كثيراً ، فأنت تودّ لو أرسلتني في تجارتك إلى الشام وأرض قيصر ، وتظن أنى سأجلب لك منها أكثر مما جلبت لك في رحلة الشتاء ، وأنت تأمننى على مالك وتجارتك لا تخاف أن يصيبك فيهما ضير ، ولكنك لا تأمننى على نفسى ، وإنما تقدرّ أنى قد نشأت حرّاً في بلاد الروم ، وأنى خليق إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن أحتجز فيها ما استودعتنى من تجارة ومال . قال عبد الله بن جدعان أما هذا فلا ؛ إنك عندى أمين على المال والتجارة . قال صهيّب : أولست ترانى بعض مالك ؟ فأمنّنى على نفسى كما تأمننى على ما سترسل معى في العروض^(٢) . وبعد فأرح نفسك من هذا العناء ، وانهض في تهيئة تجارتك إلى أرض قيصر ، فسأرحل عنك وسأعود

(١) ينوء بك : يجهدك ويشق عليك .

(٢) العروض : جمع عرض وهو المتاع .

إليك بمال لا عهد لك بمثله ؛ فأنا أعلم الناس بما يجب الروم وما يكرهون ، وليس لي في بلاد الروم أرب^(١) ، وليس لي بالإقامة فيها كلفٌ ، فقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن بلاد الروم ليست لي بدار . وقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن لي في قرينتك هذه أرباً أيّ أرب ، ولولا ذلك لما قمتُ معك ، ولما أذعنت لسلطانك . وأي شيء أيسر على مثلي من أن يفوتكم إن شاء القوت ، واستم بدوى حرّس ولا بأصحاب شرّط . ولو قد شئت لخادعتكم فخدعتكم حتى أخرج من حرمكم هذا ، ثم تطلبوني ما وسعكم الطلب فلا تجدون إلى سبيلا ، ولو قد أدركتموني لم تقدروا عليّ . قال عبد الله بن جدعان : لك في قرينتنا هذه أرب أيّ أرب ! وما ذاك ؟ قال صهيب : لو عرفته لأنباتك به ، ولكنني نُبِّئتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن محياي ومماتي في أرضكم هذه : أعيش في حرمكم هذا شطراً من عمري ، وأعيش في حرم آخر شطره الذي يبقى لي ، وأموت وأدفن في أرض الحجاز . قال عبد الله بن جدعان : ويحك يا صهيب ! إنك لتحدثني بالأحاجي^(٢) منذ اليوم ، وإني لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم . قال صهيب : وأنا لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم ، ولكنني أحدثك بما نُبِّئتُ به في آخر الصبا وأول الشباب ، وهو حديث سمعته من

(١) أرب : حاجة وغاية .

(٢) الأحاجي : جمع أحجية ، وهو الكلام المطلق كاللغز .

قسّ في بلاد الروم ، فلم أفهمه ولم ألق إليه بالا حتى رأيتني أباغ ذات يوم من بني كلب ، وسمعت سادتي يتحدث بعضهم إلى بعض بأنهم يبيعونني بثمان ربيع حين يفد عليهم الوافدون من سكان الحرم من قريش. ولو قد شئتُ أن أفلتَ من بني كلب لما أعياني الإفلات ، ولكني أردتُ أن أمتحن نبوءة القسّ فألقيتها صادقة إلى الآن ، وما أرى إلا أنها ستصدق حتى تبلغ مداها . فأرسلتني في تجارتك حيث شئت ؛ فإني ناصح لك وعائد إليك . ورددتُ إلى حريتي إن أحببت ؛ فإني مقيم في أرضكم هذه لا أريم ، وأخـرجني منها إن أردت حين يصبح الصبح ؛ فإني راجع إليها حين يمسي المساء فقيم فيها حتى يكون ما لا بدّ من أن يكون . قال عبد الله بن جدعان : ما رأيت كالיום مغامراً مقامراً ! قال صهيب : هو ذاك . قال عبد الله بن جدعان : فاصحبي إلى المسجد : فإني أريد أن أشهد قريشاً على أنك حرّ . قال صهيب : حسبك أن تُشهد نفسك وتُشهدني على أني حرّ ! فليس لي في شهادة غيرنا على حريتي أرب . وأصبح عبد الله بن جدعان فتحدّث في أندية قريش بأنه قد أعتق غلامه الروميّ صُبيياً وحالفه وجعله أميناً على ماله كله وعلى تجارته في رحلتي الشتاء والصيف ؛ فسمعت قريش ولم تنكر لما تحدّث إليها به حرب بن أمية مما كان لهذا الفتى من حسن البلاء في تجارة مولاه .

وأنفق صهيب زهرةً شبابه تاجراً لعبد الله بن جدعان ؛ يُشمر

ماله وينشر تجارته ، فيبُعدُ بها طوراً في أرض النجاشي وطوراً في أرض قيصر وتارة في أرض كسرى ، حتى أصبح عبد الله بن جدعان أكثر قریش مالاً وأوسعها ثراءً وأعظمها عطاءً وأسخاها يداً ، وحتى قصد إليه الشعراء يبيعونه الثناء بالمال الكثير . وكان عبد الله بن جدعان كلما سمع ثناء الناس عليه وأرضاه ذلك قال لصهيب : وإنما لك شطر هذا الثناء ؛ فأنت الذي أتاح لي أسبابه ويسر لي وسائله . وكان عبد الله بن جدعان ربما سأل صهيباً بين حين وحين : ألا يزال لك في أرضنا هذه أربٌ ؟ فيجيب صهيب : أربٌ ، أى أرب ! يقول عبد الله بن جدعان : فهل تبينت أربك^(١) يا صهيب ؟ فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيتك عليك .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب نفسه كلها ، وكثر ماله ؛ وكان خليقاً إن شاء أن يتحول إلى أرض قيصر حيث نشأ ، أو إلى أرض كسرى في العراق حيث ولد ، ولكنه أقام بمكة لا يبرحها ، وجعل يثمر ماله مقتصداً في هذا التثمير ، لا يغدو في التجارة ولا يبعد في الأرض ، وجعل يحيى سنة عبد الله ابن جدعان ، فيقطعم الجائع ويغني العائل ويعين المحتاج . وجعلت قریش تطمئن إليه وثق به وتأنس إلى حديثه ذاك الذي لا يكاد يُبين ؛ حتى أصبح ذات يوم فسمع قریشاً تتحدث في أنديةها

(١) تبينت أربك : أوضحته .

عن دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول محمد بن عبد الله ، وما كان يتلى فيها من القرآن ، وما كان يدار فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب في نفسه كأن أربه ذلك الذي رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ، قد جعل يدنو منه قليلا قليلا ، وقد أخذت نفسه تُتنازعه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيصدها ويردها ويستمسك بالبقية^(١) على ما كان بينه وبين سادة قريش من المودة والإلف ، ولكن شوقه إلى دار الأرقم ابن أبي الأرقم يملأ عليه يقظه النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضي إلى المسجد ، ولكنه يمضي ويمضي ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ، فيكون بينهما ما قدمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسلمان ويُقيمان مع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً مُسْتَسْخَفِينَ . وافتقدت قريش صهيباً يومها ذلك ، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسس أبو جهل أخباره ، ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمسك نفسه من الغضب ؛ فلما رآته قريش قال قائلها : ثارت ثورة أبي الحكم . ووقف أبو جهل على نادى قومه فاتكأ على قوسه ثم قال في صوت المُحْسِنِ المغيظ : اعلموا يا معشر قريش أن صهيباً قد صبا ، وأنه يُشارك آل ياسر في عذابهم منذ اليوم .

(٢) المحقق : الحاقه : المتناظ .

(١) البقية : البقية .

لم تشهد خشم يوماً كذلك اليوم الذى انتصرت فيه على عدو غير محارب ، والذى ملأت فيه أيديها من الغنيمة ، لم تتكلف فى ذلك عناء ، ولم تبُلْ فيه بلاء ، ولم تبذل فيه جهداً ولم تلقَ فيه كيداً ، وإنما كان الرجل منها يمد يده إلى ما يليه من المال ثم يردها وقد أصابت منه ما تريد وفوق ما تريد ، كأنما أنهبت مال النجاشي إنهاباً ، وأمرت أن تأخذ منه حتى ترضى ؛ ولم تكن ترضى بالقليل ، ولا تقنع باليسير ؛ ولو قد استطاعت لاحتوت فى ذلك اليوم مال النجاشي كله ؛ فقد كان جيش أبرهة يعود منهزماً عن مكة ، قد فقد حَوْلَهُ وَطَوْلَهُ وقوته فى غير حرب ، وحمل أميره عليلاً منهوكاً يترأى له الموت فيفظعه ويُفزرعه ، ثم تراءى له الحياة فترد إليه شيئاً من رَوْحٍ وراحة ، وبطانته مشغولة به جازعة عليه ، تأمل وجهَ النهار وتبأس آخره ، والجند الذين أعفاهم الموت وأبقت عليهم الطير الأباييل ^(١) يسعون متخاذلين متضائلين يتحاملون على سوق ^(٢) لا تنكاد تحملهم ، قد بلغ الجهد من أجسامهم ، وعبث اليأس

(١) الأباييل : المتفرقة أو المتابعة .

(٢) سوق : جمع ساق ، أى لا يكادون يستطيعون السير على أرجلهم .

بنفوسهم ؛ فهم ظلال تسوق المال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا تُخيف .

وكانت خثعم قد رأت جيش أبرهة وهو يسعى إلى مكة في قوة أي قوة وعدة أي عدة ونشاط أي نشاط . فأما كرامها وذوو أحلامها فتنحسوا لأبرهة عن طريقه^(١) ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ، ورأوا أنه مقدم على إثم عظيم ، فربثوا بأنفسهم عن المشاركة فيه . وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والنزق منهم فتفرقوا شيعاً واختلفوا أحزاباً : فمنهم من قاوم حتى أعيته المقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم فباع نفسه وأقبل على الإثم مستخفناً به غير حافل بعواقبه ، ومنهم من تنحى عن الطريق ولم يُبعد ، وإنما أقام رصداً^(٢) يرقب الجيش ويتربص به الدوائر وينتهاز منه الغفلات ، يقتل هنا ويحطف هناك ، ويلوذ بين ذلك بشعاف الجبال وشعابها^(٣) ، حتى اضطغن^(٤) عليهم أبرهة في نفسه وأقسم ليؤدبهم مُنصرفه عن مكة أدباً تتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشي هيئته وسلطانه ، ولكن أبرهة لم يدخل مكة ولم يمسس بيئها بسوء ، ولم ينصرف عن مكة انصراف المنتصر ولا

(١) تنحوا عن الطريق : مالوا عنه وابتعدوا .

(٢) الرصد : القوم الذين يرصدون أي يرقبون كالحرس والحدم .

(٣) شعاف الجبال : أعاليها الواحدة شعفة . وشعابها : ما ينفرج بيئها ، الواحد

شعب بالكسر .

(٤) اضطغن : أصمر الحقد والضغينة .

انصراف الخفق ، وإنما انصرف عنها انصراف المهزم المخذول الذي فعل الدهر به الأفاعيل ، وإن لم ير جيشاً محارباً ولا عدواً مناوئاً ، وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترى جيشه بحجارة من سجيل ، فتجعله وتجعل جيشه كعصف مأكول^(١) . وقد أسرع ذوو خاصته به إلى اليمن ، وقد نهكته العلة حتى أشرف على الموت ، ومروا في طريقهم بخثعم فلم يبطشوا بها ولم يصبوا عليها عقاباً ولا عذاباً ، وإنما بطشت بهم خثعم فصبت عليهم العقاب والعذاب ، ولم يخلصوا منها إلا بشقّ الأنفس ، ومضوا يحملون عيولهم بين الموت والحياة ، فلم يبلغوا به صنعاء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد أن برّحت به العلة تبريحاً .

في ذلك اليوم ملأت خثعم أيديها من ذائب النجاشي وجمامه ، فأخذت من الذهب والفضة ، وأخذت من الإبل والخيل ما أغلّ عليها حين باعته مالا كثيراً ، وأخذت فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهم كنّ يصحبن الجيش يرين في صحبته لذة وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباؤهن وأزواجهن في استصحابهن تفريحاً عنهن وتسلية لهن ، وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان في هذا السفر للذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهداً ، وإنما هو تسلية للنفوس وتسرية للهموم وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة

(١) عصف مأكول : ورق شجر أكلته الدواب وصار روناً .



ی
،
مله
لی
فی
،
وا
،
لد
،
ن
ن
ن

من أهل البادية بهدم ذلك البيت الذي يُكبرُونه^(١) ويعكفون عليه .
 ويرون أنه وحدهُ خَلِيقُ بالإكبار ، وأنه وحده جدير بالتقديس .
 سفرٌ قاصدٌ^(٢) ممتعٌ يجب أن تكمل فيه للرجال لذاتُ أجسامهم
 وبهجة قلوبهم وقرّة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة
 الجيش وأمرأؤه زوجاتهم وبناتهم يمتنعنهم بالحلب والرحمة ، ويؤنسنهم
 بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مُغنيات وعازفات وراقصات
 يزدن بهجة السفر بهجة وجمال الرحلة جمالا . ولم يخظر لهم أنهم إنما
 كانوا يستصحبون الحرائر والإماء ليجعلوهن نهياً لأولئك العرب الخفاة
 الغلاظ البادين في طريقهم إلى البيت ، ولأولئك العرب الخفاة الغلاظ
 الحاضرين من حول البيت^(٣)

ويخرج سُحَيْمُ بنُ سَهْلٍ الخثعمي مع الخارجين ويعدو مع
 العادين ، ويملاً يديه كما ملأ بنو أبيه أيديهم ذهباً وفضةً ونعماً
 وعرضاً . ولكنه يرى فيها يرى ناقةً تسعى يقودها حبشي غليظ
 جهم . يظهر عليه فضلٌ من قوة وبأس ، ولكنه متخاذل متواكل
 قد تهكّه الجهد^(٤) وأضنته العلة ، فهو يسعى مذعناً لأمر سادته .
 ولو استجاب لنفسه لاستراح في هذا الجانب أو ذلك من جوانب
 الطريق ، ولترك هذه الناقة تقود نفسها وتسعى إلى حيث تريد أو

(١) يكبرونه : يعظمونه .

(٢) سفر قاصد : سهل قريب .

(٣) البادين : سكان البادية . الحاضرين : سكان الحضر أي المدن .

(٤) نهكّه الجهد : أضناه التعب .

إلى حيث يريد لها القضاء . وينظر سُحَيْم بن سُهَيْل فيرى على هذه الناقة هودجاً (١) نفيساً قد ألقيت عليه أستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصع بشيء من الجوهر ، فيستهويه ما يرى ، ويسرع إلى العبد ورمحه يضطرب في يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحول إليه زمام الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاعراً ذليلاً . قال سُحَيْم بن سهيل للعبد : لمن تكون هذه الناقة ؟ ولن يكون هذا الهودج ؟ قال العبد في لهجة عربية كدرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سُحَيْم بن سهيل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة إلى بيته : حسبي من الغنيمة هذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متاع نفيس . فأما ربة الهودج فليست مني ولست منها في شيء ، ولأطرفن بها سيدياً من سادات قريش .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه ، حتى إذا بلغ مضارب الحى أوماً (٢) إلى العبد فأناخ الناقة ، ووقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ولكن سُحَيْماً يومي إليه فينزل الهودج عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحى فيقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ويدنو سُحَيْم من الهودج مترقياً ، ويرفع أحد أستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره في الهودج ، ثم يرده إلى نفسه وقد امتلأ

(١) الهودج : محمل له قبة كانت تتركب فيه النساء .

(٢) أوماً : أشار .

وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ وربّ البيت !
 ذلك أنه رأى فتاةً رائعةً الحسن على سُمرةٍ بشرتها ، بارعةً الجمال ،
 فاتنةً اللحظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هي ضئيلة
 نحيلة ، قد ملاءها الذعرٌ وملكها الروح ، ولكنها على ذلك جليدة^(١)
 متماسكةٌ يصدّها الحياء والوقار عن أن تُظهر ما يملأ قلبها من آجزعٍ
 وهلّجٍ ومن تولّته والتياع^(٢) . ويمدّ سُحيم بن سهيل نظره إلى الفتاة ثم
 يردّه إلى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن
 يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ وربّ البيت ! ثم يخرج الفتاة من
 هودجها حفيهاً بها^(٣) متلطفاً لها يقول : لا تُرَاعِي ، لا تُرَاعِي يا ابنتي ،
 فلن أريد بك سوءاً ، ولن يمسك مني شيءٌ تكريهينه . ثم يأخذ
 بيدها ويسعى بها مستأنياً^(٤) ، والفتاة تُطيعه . وكيف لها بغير الطاعة !
 حتى إذا دخل بها إلى أهله قال لامرأته في صوت محازم صارم :
 استوصي بهذه الحمامة خيراً ؛ فإن دار نخشم ليست لها بدار ،
 وإنما مكانها عند سيد من سادات قريش . ثم يخرج فيحرز الهودج
 والناقة والعبد ، ويعدو ليدرك الناهبين من بني أبيه عسى أن يصيب
 من الغنيمة فوق ما أصاب .

(١) الروح : الفزع . جلدة : قوية شديدة ذات صبر .

(٢) التوله : الحزن الشديد . الاتياع : احتراق القلب من الهم والشوق .

(٣) حفيها بها : مبالغاً في إكرامها وإظهار الفرح بها .

(٤) مستأنياً : مترقفاً .

ولم يمض شهر بعد ذلك اليوم حتى كان مُسَيِّم بن مُسَهِّل عند خَلْف بن وهب الجمحي في ضَيْعَة له بالسَّرَاة ، قد أقبل ومعه أميرته تلك الفتاة الحبشية حتى أفاخ عند دار خلف . وتلقاه أهل الدار كما تعود العرب وكما تعودت قريش أن تتلقى ضيفها ، ولكنه لم يكد يفرغ من تحيته حتى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد جُمُح ! قال خلف : بالخير ، وما أقبلت قطّ إلا بخير . قال مُسَيِّم : أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذي أقبل غازياً للبيت فردّه رب البيت مخذولاً مدحوراً^(١) . قال خلف : ابنة أخت أبرهة ؟ قال مُسَيِّم : نعم ابنة أخت أبرهة . قال خلف ما اسمها ؟ قال مُسَيِّم : ما أدري ، ولكن لم أكد أرى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتى سميتها حمامة ، وحتى رأيت أنها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد من العرب إلا أن يكون سيّداً من سادات قريش حُماة البيت وسدنة^(٢) الآلهة ، وأنت تعلم ما بيني وبينك من الحلف والود القديم . وهمّ خلف أن يسأله عما يريد لها من ثمن . ولكن مُسَيِّمًا قال له عَجلاً : مهلاً أبا أمية ، إني لم آتتك بهذه الأميرة تاجراً ، وإنما أتيتك بها مطرفاً لك هدية الصديق إلى الصديق . قال خلف : وصَلتكَ رَحْم ! وأظهر الرضا والاستبشار والشكر ، وعرف في دخيلة نفسه أن هدايا الأعراب تُقبل وتُجزى بخير منها . ثم أمر بالفتاة فحوّلت إلى

(١) مدحوراً : مطروداً .

(٢) السدنة : جمع سادن ، وهم خدم الكعبة وحجائها .

حيث أهله ، لم ينظر إليها ولم يحفل بالنظر إليها ، ثم تحدّث إلى سُحَيْمٍ فيما يتحدّث فيه المضيف إلى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطراقة طويلة . ووقع في نفس سُحَيْمٍ أن تُطْرَفْتَهُ لم تبلغ من نفس صديقه ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سُحَيْمٍ أنك لم تُسْأِدْ إلى معروفاً كهذا المعروف الذي أسديته إلى منذ اليوم ؟ إننا لم نُقاتل أبرهة ، ولم نَدُدْ عن البيت ، وإنما أمرنا أن نتفرق عنه وأن نترك حمايته لربه . وقد حمى صاحب البيت بيته وردّ عنا أبرهة وفيله وأجاشه ، ونحن ننظر إلى ذلك من قمم الجبال ومن ثنايا الطرق التي أومنا إليها وتفرقتنا فيها . فلما ارتد عنا العدو ثُبْنَا^(١) إلى مكة وعدنا إلى بيوتنا ، وفي نفوس كثيرة منا حسرات ؛ لأننا لم نؤدّ لهذا البيت حقه علينا من الذود عنه والقيام دونه^(٢) . فأنت حين تحمل إلى هذه الأميرة إنما تتيح لي أن أشفي نفسي . فوربّ هذه البنية^(٣) التي لم أزد عنها لأذلنّ أميرتك هذه الحبشية ذلاًّ لم تعرفه الحبشيات بعد . وأول ذلك أنها لن تدخل مكة ، ولن تطأ أرض الحرم ، فقد ردّ صاحب الحرم هذا الرجس^(٤) عن أرضه وبيته . قال سُحَيْمٍ : وَيَحْكُ أبا أمية ! لو عرفت أنك ستلقى هذه الحمامة الرشيقة الأنيقة

(١) ثبنا : رجعنا .

(٢) الذود عنه والقيام دونه : الدفاع عنه وحمايته .

(٣) البنية : الكعبة .

(٤) الرجس : القدر والقيح .

هذا اللقاء السيئ لآثرتُ بها نفسى . قال خلف متضحكاً : هيهات ! إنما هو أمرٌ قد دبره من هو أعظم منك وبنى سلطاناً . إن هذه الأميرة يجب أن تستدلّ قريباً من هذا الحرم الذى أراد قومها أن يستدلوه ، وإنما ما عاشت لن تعرف الحرّية ولن تلد الأحرار . قال سُحيمٌ : فأنت إذن تربأ بنفسك عنها^(١) ، فأردّها إلى . قال خلف وقد أغرق فى الضحك : هيهات ! إني أربأ بك أنت عنها أيضاً ! فقد قلت إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لى فى هذه الضيعة إبلاً وشاء يرهاها غلمان لى فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم هذه الإبل والشاء . وهم سُحيمٌ أن يراجع صديقه فى بعض ما قال ، ولكن خلفاً حول الحديث وشغل صاحبه عنه بأبناء اليمن وأحداث تهامة والحجاز . ودخل خلفٌ على أهله بعد أن عشى الناس وتقدم الليل ، فألقى امرأته محزونة كثيراً ، فلما سألتها عن أمرها لم تُردّ عليه جواباً ، وإنما قالت له فى لهجة حزينة : ماذا تريد أن تصنع بهذه الفتاة الحبشية الحسناء التى جلبها لك سُحيمٌ ؟ قال خلفٌ وكأنه أراد أن يثير فى نفسها شيئاً من غيظ : استوصى بها خيراً أم أمية : فإنها ابنة أخت الأمير صاحب القيل . قالت أم أمية وقد أجهشت بالبكاء : لم يبقَ إلا أن نرفق بالذين غزوا دارنا وأرادوا أن يستبيحوا الحرمَ وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلفٌ على امرأته فمسح رأسها وهو يقول : لا عليك أم أمية^(٢) ! فما أردت إلا إلى الدعابة . إن هذه الفتاة

(١) تربأ بنفسك عنها : تعالى وترفع . (٢) لا عليك : لا تهتمى ولا تحزنى .

لم تعرف في حياتها إلى الآن إلا العزة والكرامة ، وإني قد أقسمت حين
أهداها إلى سُحَيْم ألا ترى منذ اليوم إلا الذلّة والهون . إني لم أبل (١)
في حماية الحرم شيئاً من بلاء ، فلا أقلّ من أن أذلّ الحبشة في
أميرتهم هذه . قالت أمّ أمية : فاجعلها لي خادماً إذن . قال خلف
وهو يضحك : هيهات ؛ ليست خدمتك ذلّة لها أم أمية . قالت
أم أمية : اجعلها لي خادماً ، وسترى كيف أذيقها الذلّ . قال
خلف : قد فعلتُ على أن تُقيم في ضيعتنا هذه بالسراة ، وعلى
ألا تنطأ الحرم ولا تدخل مكة ؛ فإن ربّ هذا البيت قد ردّ هؤلاء
الناس عن الحرم ، وما أريد أن أخالف عن أمره ولا أن أوطنها الحرم ،
حتى ولو كانت أمة خادماً ، ولكنني سأرعيها الإبل والشاة فيمن
يرعى الإبل والشاة من عبيدنا وإمائنا . قالت أم أمية : ما أجدرك
أن تسود في قریش !

وكان لخلف غلام من مولدَى الحبشة يقال له رَبَاحٌ قد نيف
على العشرين ، وكان ذكياً صناعَ اليد حازم الرأي ، قد أرضى
سيده حتى أعتقه وجعله قياً (٢) على ضيعتنا تلك في السراة . فلما أصبح
خلفٌ دعا إليه مولاه وقال وهو يبتسم : إيه يا رَبَاحُ ! هذه أميرة
من أمرائكم قد جُلبتْ إلينا أمس ، وقد علمت ما كان من قومك ،

(١) أبلى في الحرب : أظهر فيها بأسه حتى بلاه الناس وامتنحوه .

(٢) القيم على الشيء : المتولى أمره .

وإني قد أزمعت^(١) أن أرفعها الإبل والشاء ، فهل أكلها إليك لتذيقها من الذل والهون ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك من ذلك وقد رأيت صنيعى بغلمانك على اختلاف أجناسهم ؟ أأنت آخذهم بالخزم والصرامة حتى أحملهم على الجادة^(٢) في خدمتك ؟ قال خلف : هو ذاك ، فخذ هذه الفتاة تألبسها ثياب الرعيان وأرسلها مع أمثالها . قال رباح : فإني لا أرى لها في هذا إذلالاً ولا امتهاناً ، ولكن عندي خطة أعرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما تريد . قال خلف : هات . قال رباح : فإني لست من أمراء الحبشة ولا من ساداتها وإنما أنا من دهمائها^(٣) ، وفي من الزنج عرقٌ ، ولو لم أجلب إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً في قصر هذه الأميرة . قال خلف وقد ابتسم قلبه وثرغره : فأنت تريد أن تتخذها لنفسك زوجاً . قال رباح : إن كنت إنما تريد إذلالها وامتهانها وإذلال سادة الحبشة وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجي من غلمانك . قال خلف : قد فعلتُ ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى فاضمم أهلك إليك .

وكان الزنجي في خطته هذه ماهراً ماكرًا ، ولعله لم يمكر بسيده قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة

(١) أزمعت : عزمت ونويت .

(٢) الجادة : الطريق المستقيمة التي لا انحراف فيها .

(٣) الدهماء : عامة الناس .

ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسومها الخسف^(١) ، وشق عليه ذلك ، وقدّر في نفسه أن يعمل ما استطاع لصيانتها مما يُدبّر لها من الهوان ، فلم يهتد إلا إلى هذه الخطة . فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضى ضميره وعرف أنه سيضمها إليه وسيخذها لنفسه سَئِماً مُخْلِصاً له الحب وبِؤْرته بالود ويقدم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدم لمثلها في هذه الحال السيئة التي هما فيها . وعسى الأيام أن تُحدث بعد ذلك أمراً .

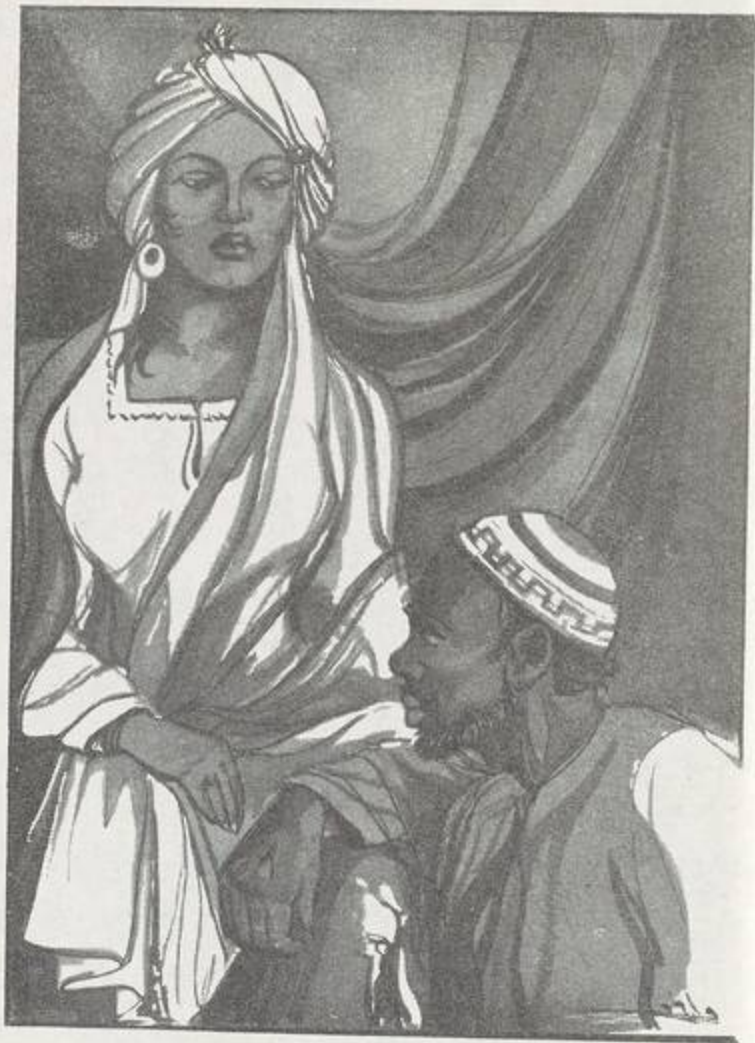
وضم رباح زوجه لأميرة إليه ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجدّ في إكرامها والرفق بها ، واختصها بكل ما استطاع أن يختصها به من المحبة والمودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، وَيُجَنِّبُهَا ما تكره^(٢) أثناء النهار ، فإذا كان الليل وآن له أن يأوى إلى مضجعه التي وسادة من وراء باب البيت ورمى نفسه عليها ، وأنفق الليل نائماً أو يقظان يُعنى بزوجه ويسهر عليها ، لا يمسه ولا يدنو منها .

وقد أقبلت الفتاة على زوجها مذعنة مستكينة^(٣) . فلما رأت إكباره لها ورفقه بها اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منه ، فجعلت

(١) يسومها الخسف : يذللها .

(٢) يجنبها ما تكره : يبعده عنها .

(٣) مذعنة مستكينة : منقادة خاضعة ذليلة .



تحدث إليه حديث السيد إلى العبد ، ولكن في شيء من التواضع والأناة وحسن التأتى ، وجعل هو كلما رأى منها رفقاً به وعظماً عليه ازداد لها حجباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتها . وأنفقا على ذلك أشهراً وأشهرأً والفتى حنفى^(١) بزوجه لا يدع شيئاً يقدر عليه إلا أتاه ليجنبها ما تكره ، وليجعل الرق أخف عليها حملاً ، ولييسر لها الصبر على محنتها . ولكن أمور الناس تجرى على غير ما يُقدرون ويدبرون .

فقد أزمع الفتى في نفسه أن يسير مع هذه الفتاة سيرة الخادم المهيئ مع السيدة الكريمة المستعلية التي تملك من أمره كل شيء ، وأزمع في نفسه أن هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربي الذي أراد أن يبين أميرة من أميرات الحبشة . وأى بأس عليه في أن ينصح لسيدة ما وسعته النصيحة ، ويُخلص في خدمته ما وجد إلى الإخلاص فيها سبيلاً ، ويقوم على ماله أحسن قيام وأرفقه : يدبّره ويثمره كأحسن ما يكون التدبير والتثمير ، لا يستثنى من ذلك كله إلا هذه الفتاة ؛ فإنه لا ينصح فيها لمولاه ، ولا يطبع فيها أمره ، وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصها بالإكبار والكرامة رعاية لمنزلتها في بلادها تلك البعيدة النائية .

هى زوجه عند خلف وأضرابه من سادة قریش ، وهى زوجه

(١) حنفى بزوجه : مبالغ في إكرامها وإظهار الفرح بها .

عند هؤلاء الغلمان الذين يسوسهم بالحزم ويأخذهم بالعنف ، ولكنها مولاته وأميرته فيما بينها وبينه وفيما بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك في قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ، فقبلته راضية ، واطمأنت إليه مغتبطة ، واعتقدته في ضميرها مخلصاً ، وسارت معه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنه يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليها بالطاعة والرضا ، يقوم دونها^(١) ما أضاء النهار ، ويسهر عليها ما أظلم الليل . وهي ترى ذلك لها حقاً أول الأمر . ثم تفكر وتقدر فتعلم أنها أمة^(٢) ليس لها حق على أحد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، ولهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ، فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة في هذا فتتأى عنه بجانبها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود التأى عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل برّ الفتى لها ورفقه بها وإيثاره إياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان في حياة الرقيق شيء من الطيبات . وإذا الفتاة تجد في نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلاً إليه ، ثم احتياجاً إلى مكانه منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطيل الغياب .

وتمضي أيام وأسابيع والفتى ماض في حبه الخالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية في هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحسن الفتاة

(١) يقوم دونها : يحمها ويحافظ عليها .

(٢) أمة : جارية .

حاجتها إلى أن تأنس إلى الفتى أكثر مما أنست إليه ، وإلى أن يأنس الفتى إليها أكثر مما أنس إليها أثناء هذه الشهور الطوال . تود لو استطاعت أن تُتلغى ما بينها وبينه من الكلفة ، وأن تتحدث إليه ويتحدث إليها حديث الرفيق إلى الرفيق . ولكنها لا تجد الوسيلة إلى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم للفتى ، وثرغها يريد أن يبسم فيرده عن الابتسام فضل من حياء . ولكنها مع ذلك تلحظ الفتى حين يُقبل عليها أو حين يتحدث إليها في بعض الأمر لحظاً فيه شيء من دعة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظها من الفتى أعماق نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدّث الفتى نفسه بأمل قريب أو بعيد ، ولم يُخطر الفتى على باله أن من الممكن أن تُتلغى المسافات والآماد بينه وبين أميرته ، أو ينظر إليها ذات صباح أو ذات مساء نظرة الطامع أو الطامح ، وإنما هي بالقياس إليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن أن ترقى إليه الطرف ولا يمكن أن ترقى إليه النفس . فضلاً عن أن ترقى إليه القدمان . وكذلك أصبح الأمر بين هذين الرفيقين أمراً عجباً : هما زوجان أمام الأحرار والرفيق ، وهما زوجان أمام العرف الذي اصطاح الناس عليه . ولكن الفتى يكبر الفتاة عن أن تكون له زوجاً ، والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك . ولا تتمنى شيئاً غيره . ولا تجد السبيل إليه . حتى استحالت الصلة بينهما إلى شيء غير مألوف

فالفاتاة عاشقة وامقة^(١) ، ولكن التي يرى نفسه أقلّ من العشق وأصغر من الوموق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التي جعلت تنكرها ، وربما وجدت^(٢) على الفتى وظنت به الغرور والكبرياء ، وإن لم يجد الفتى في نفسه إلا التواضع والهوان . ولولا حرص الفتى على أن يكون رقيقاً رقيقاً ، وحرص الفتاة على أن تكون عارفة للجميل شاكرة للنعمة مقرة بالمعروف ، لحاز أن يفسد الأمر بينهما . والفساد لا يسرع إلى شيء كما يسرع إلى صلة المحبين حين يبلغ بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب^(٣) بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السأم يسعى إلى نفسها ، وجعلت لا تحس شيئاً إلا أنكرته ، وجعلت تشعر بأن خلقها يريد أن يسوء . وأحس الفتى منها بعض ذلك ، فغلا في الرفق^(٤) ، وأمعن في التلطف . واشتد ضيق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم : إنك لتغلو في الرفق بي والتلطف إلى ، وإنك لتريد الإحسان فتخطئه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أنني محتاجة منك إلى شيء غير هذا التلطف والترفق . قال الفتى في تواضع وتساؤل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة في

(١) وامقة : محبة عاشقة .

(٢) وجدت عليه : غضبت .

(٣) العقاب : جمع عقبة ، وهي المرق الصعب . وتقوم العقاب بينه وبين غايته :

تحول الأمور الصعبة دون ما يريد .

(٤) غلا في الشيء : بالغ فيه .

سخرية مُرّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حر وأنى . . . قال
الفتى : مهلاً ! إني حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قنّاً (١) منذ عامين .
قالت : قنّاً منذ عامين ، وقد رُدّت إليك الحرّية وانحط عنك الرق (٢) ،
فأنت أرفع منى مكاناً وأحسن منى حالاً . فما تواضعك وتضاؤلك
وإمعانك في العناية بما مضى من الدهر ، وأنت خليق لا أقول بأن
تستكبر وتستعلي ، وإنما أقول بأن تذكر ما نحن عليه اليوم ، وما
يمكن أن نصير إليه غداً . إنك لتذكر أنى كنت أميرة ، وتحفظ
لى حقّ الإمرة . ، ولكنك أجدر أن تذكر أن الإمرة قد مضت
مع الأيام التي مضت ، وأنى قد صرت إلى الرقّ حين عدت أنت
إلى الحرية . وأنت بعد هذا كله قد اتخذتني زوجاً . قال الفتى :
إنما اتخذتكَ زوجاً لأردّ عنك ما يراد بك من سوء . قالت الفتاة :
فقد فعلت ، وإني لذلك لشاكرة ، ولكنك اتخذتني لنفسك زوجاً ،
فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنالك انهلت (٣) دموع
غزار من عيني الفتى ، ولم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع
السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية
لم تعرف أكانت حمرة الحجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت
ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقاب .

(١) القن : العبد .

(٢) انحط عنه الرق : صار حراً .

(٣) انهلت : سالت .

أقبل خلف ذات يوم فآلم بضيعته في السراة، وعرف من أمرها ما كان يريد أن يعرف، وسمع مق قيمته رباح ما كان يجب أن يسمع، ورضى عما رأى وما سمع وما عرف. فأمر الضيعة تجرى على خير ما كان يجب: مال كثير، وغلّة غزيرة، وأمانة من رباح لا يرقى إليها الشك. وقد بلغ الرضا من نفس خلف أن تمنى أن يُحسن إلى قيمته وأن يكافئه على ما بذل من جهد، فأهدى إليه إبلاً وشاء، وفضلاً مما تغله (١) الضيعة من ثمر الأرض، وتلقى منه شكره للجميل، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبه. وهمّ القيم أن ينصرف راضياً موفوراً، ولكن خلفاً يستوقفه ويسأله في دعابة حلوة: إيه يا رباح! أيكما العقيم؟ فقد مضى دهر منذ أملكك تلك الحمامة الحبشية، ولم أر لكما ولداً. فوجم القيم شيئاً، وهمّ أن يتكلم ولكن الحياء عقد لسانه، فغض بصره وأطرق إلى الأرض. وألح عليه خلف في السؤال وأعاد إليه مقالته متضحكاً: إيه يا رباح! أيكما العقيم؟ قال رباح وقد عاد إليه شيء من جراءة وشيء من حفاظ (٢): وما يعنياك أن نعقم أو أن يكون لنا الولد؟ قال خلف: على رسلك (٣) يا رباح!! إن تكن حرّاً فإن حمامتك أمة. قال رباح مغضباً: فأنت إذن زوجتنيها لتستغلها وتستغلني كما تستغل الإبل والشاء! قال خلف: إنك

(١) تغله: تخرجه من الغلة.

(٢) الحفاظ: الأنفة والحمية والحفاظة.

(٣) على رسلك: على مهلك، تأن.

لغضوب يا رباح . إني لم أرد أن أسوءك ، وإنما أردت أن أرفق بك وأن أعرف بعض أمرك . قال رباح : فأعرف إذن من أمرى ما تحب . ثم ضرب بيده على جبهته وهو يقول : وبلاه ! لقد أنسيت أنها أمة^١ ، وأن ابنها سيكون قنًا مثلها . قال خلف : وإن لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو أطاعتني نفسي ، ولو أطاعتني هي لوأدته^(١) كما تتدون بناتكم ؛ فليس مما يسر ولا يرضى أن يعرف الرجل أنه يُستفحل كما تستفحل الإبل . قال خلف وقد بدا في صوته شيء من الأسى : ويحك يا رباح ! إنك لتشق على نفسك وتشق على غير طائل . وأيم الله ما أردت استغلاك ولا استفحالك ! وإنك لتذكر كيف تقدمت إليك أن تُرعى هذه الفتاة مع رُعياننا ، فتمنيت على أن أجعلها لك زوجاً ، وزعمت لي أن ذلك أبلغ فيما كنت أريد لها من الذل . فما خطبك ؟ وماذا عرّص لك ؟ . . . هنالك ثابت إلى رباح نفسه ، وذكر احتياله في صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ، وذكر أنه لم يخذع مولاة ولم يكذب عليه قط إلا هذه المرة ، وحرّص على أن يخفي خداعه وكذبه مخافة أن يصيبه ويصيب زوجه بعض الشر ، فقال وهو يتكلف ضحكاً خيراً منه البكاء : وماذا تريد أن أقول لك ؟ لقد وقعت في نفسي فأحببتها . قال خلف : أحببتها

(١) وأدته : دفتته حياً .

وكنت تريد أن تُذلتها؛ قال رباح : أميرة صارت إلى الرقّ وَزَوَّجَتْ من عبد لم يكن ليطعم في خدمتها ، فاحتملتُ ذلك مذعنة (١) له : ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ، فكيف تريد أن أذُها أو أهينها ؟ قال خلف في صوته الحزين : هو ذاك ، هو ذاك ! قد ألغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . قال رباح متضحكاً : أليس غريباً أن يكون الرق هو الذى يسوّى بين الناس ويُلقى ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة ، وأن تكون الحرية هى التى تفرّق بين الناس فتجعل منهم الغنى والفقير والقادر والعاجز والقوى والضعيف والسيد والمسود ؟ متى ينقضى هذا الليل : ومتى يُسفر عن الصبح المشرق الجميل ! قال خلف ! وَيَحْك ! ماذا تقول ؟ أى ليل وأى صبح ! قال رباح : الليل هو هذا الدهر الذى نعيش فيه والذى يسوّى فيه الرقّ بين الأرقاء ، وتفرق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المقبل الذى يسوّى فيه بين الأحرار والعبيد ، ويميّز الناس فيه بأعمالهم وبلائهم ، لا بمنازلم وحظوظهم من الثراء . قال خلف ، وقد أغرق في الضحك : لقد تكهنت يا رباح منذ اليوم ! دع ليلك المظلم وصبحك المشرق . وحديثي عن صبيك هذا الذى كنت تريد أن تثده منذ حين ، ما اسمه ؟ وما شكله ؟ قال رباح : إنك لتسخر من ليلى وصبحتى .

(١) مذعنة : منقادة خاضعة .

وإن ليلى لمجنل ، وعسى أن ندرک انجلاءه ، وإن صبحى لمسفر
وعسى أن ندرک إسفاره ؛ فإن لم ندرکه نحن فسيدرکه ابنک أُمیة
وسيدرکه ابني بلال . فهزّ خلف رأسه ورفع كتفيه وقال : **حَسْبُكَ**
يا رباح ، تحدث بهذا إلى غيري ؛ أما أنا فإني زائد في عطائك
لمكان هذا الصبي من أسرتك ، ولولا أن قسماً عظيماً قد سبق مني
لرددت إلى زوجك حريتها ولجعلت ابنك حرّاً مثلك ، ولكنك تعلم أنها
أقبلت غازية لنا مستخفة بنا منبهة لحرماننا (١) . فأمسك عليك أهلك (٢) ،
وعيشا سعيدين بصبيكما ، فك يمسككم ما حبيت سوء ، ولكني
أقدر لكم على أكثر من ذلك . قال رباح وهو يهز رأسه ساخراً :
أقبلت لكم غازية ! أقبلت لكم غازية ! وماذا كانت تعرف
من أمر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ، ولكن
الكبار يأثمون فيؤخذ الصغار بأثامهم . قال خلف : ما رأيت كاليوم
حكياً . انصرف الآن عني واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ،
ولا تدع حكمتك هذه في الناس فيصيبك منها بعض ما تكره .

وعاش رباح وحمامة ما شاء الله أن يعيشا ، قد رضيا من الحياة
بما قسم لهما ، وفرغ لابينهما بلال وأخيه الذي نسي التاريخ اسمه
وذكر بعض أمره ، يُنشئانهما كما تعود أمثالهما تنشئ أبنائهم في
منزلة وسط بين منزلة الأحرار ومنزلة الرقيق . ثم انصرفا عن هذه

(١) منبهة لحرماننا : معتدية علينا . وانتكح حرمته : تناولها بما لا يحل .

(٢) أمسك عليك أهلك : احتفظ بهم .

الدنيا وتركها فيها هذين الغلامين يعملان في ضيعة خلف ، ويسعيان ، في خدمة جُمَحَ كلها . وعاش خلف ما شاء الله أن يعيش ، ثم انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قوياً جلدأً ، وارثاً مع إخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرفيق . لم يشهد رباح ولم تشهد حمارة ولم يشهد خلف انحسار الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، وإنما رأى بلال إسفار الصبح ، فامتلاً قلبه به نوراً ، ورأى أمية إسفار الصبح فامتلاً قلبه به ظلمة . وآل^(١) أمر بلال إلى أن أصبح من أحب الناس إلى النبي وآثرهم عنده ؛ وآل أمر أمية إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبي حتى قُتل يوم بدر ، وأورث بغضه وعداؤه للنبي أخاه أبيعاً ذلك الذي هم أن يقتل النبي يوم أحد ، ولكن النبي يمسه برمحه فيفتح له باب الموت .

ويقبل أمية ذات يوم ليشهد ما كان أبو جهل يصب على آل ياسر من العذاب ، فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهز رأسه ثم يقول لأبي جهل : إذا كان الغد فأقبل على دار جُمَحَ لترى كيف نعذب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف نعذب زعيمهم بلالا !

(١) آل أمره : رجع وانتهى .

شدّ ما تعفون الصبي وتشتتون عليه^(١) ! ما رأيت كالיום
رجالاً قساة القلوب جفاة الطباع غلاظ الأكباد ! . .

قالت ذلك أم أنمار، ثم ألفت بنفسها بين أولئك الرهط^(٢) من أعراب
بنى عامر ، فجعلت تدفع في صدر أحدهم بقبضة يدها اليمنى ، وتجذب
ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى ، تريد أن تردّهما عن ذلك الصبي
الذى ألحوا عليه صفعاً وتأنيباً^(٣) . وكان أولئك الرهط من بنى عامر
قد أقبلوا من نجد يسوقون بين أيديهم مطايا تحمل تجارة من حبّ
العراق . فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التي كانت تحمل هذه
التجارة ، أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذلك ، فعرضوه هنا وهناك ،
ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه ، فأحفظت^(٤) عليه نفوسهم
وقست عليه قلوبهم ، وهموا أن ينصرفوا به ليعرضوه على من يمرون

(١) عنفه : عامله بشدة ولم يرفق به . اشتط أفرط في الظلم .

(٢) الرهط : الجماعة دون العشرة .

(٣) صفعه : ضرب قفاه أو بدنه بكفه مبسوطة . وصفعه : ضربه على رأسه . وأنبه :

عنفه ولامه .

(٤) أحفظه : أغضبه .

بهم من أحياء العرب ، لعلهم أن يجدوا له مشترياً . ولكن الغلام
أظهر شيئاً من التمتع والتأني ؛ كانت نفسه تكره أن يتقلب معهم
لكثرة ما صبّوا عليه من الأذى وما نالوه به من المساءة . فلما أظهر
الامتناع عليهم جدّوا في تأديبه وتأنيبه . وأدركتهم أم أثمار الخزاعية وهم
يصنعون به هذا الصنيع ، فرق له قلبها ، ورحمته مما كان يلقى
من الضر ، فاندفعت تردهم عنه وتحميه . قال أحد أولئك الرهط
من بني عامر لأمّ أثمار : ما أنت وذاك ؟ ما رأينا كالיום امرأة
سوء ؟ ولو كنت في غير هذا الحرم لمسك منا بعض ما تكرهين .
قالت أمّ أثمار وقد أخذ الغضب يسكت عنها : وأخذ الابتسام
يسعى في وجهها المتجعّد : ولكني في هذا الحرم : فلن تصل إلى
أيديكم . ألا تستحيون من أجسامكم هذه الطوال العراض ، ومن
لحاكم هذه التي ونخّطها (١) الشيب ، ومن لمكم (٢) هذه التي ترسلونها
على أكتافكم أن تبطشوا بهذا الصبي النحيف الضعيف ! قال أحد
العامريين : لو أهّمتك من طعامه ومؤنته ما يهمننا لما رحمته ولا رفقت
به ! إنه والله لغلام سوء . يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يغني
عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يُخالف عن أمرنا ويأبى أن يتبعنا .
كأنما أعجبت هذه القرية مع أنه لم يُعجّب من أهلها أحداً . قالت
أمّ أثمار : فإنه قد أعجبني . قال العامري : فأدّى إلينا ثمنه ثم

(١) ونخّطها الشيب : خالط سواد شعرها .

(٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

خذيهِ ، لا بَارَكَتِ الْآلَهُ فِيهِ . وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أُمِّ أُنْمَارٍ مَسَاوِمَةٌ طَالَتْ وَالْتَوَتْ وَكَثُرَ فِيهَا الْأَخْذُ وَالرَّدُّ وَالْجَذْبُ وَالشَّدُّ ، وَانْتَهَتْ بِشِرَاءِ أُمِّ أُنْمَارٍ لِلْغُلَامِ بِثَمَنٍ بِخَمْسِ دِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ . وَانصَرَفَ الْعَامِرِيُّ وَوَقَدَ أَلْقَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِبْثًا ثَقِيلًا . وَعَادَتْ أُمُّ أُنْمَارٍ إِلَى دَارِهَا فِي حَيِّ بْنِ زُهْرَةَ تَجَرَّ بِيَدِهَا هَذَا الْغُلَامَ الضَّئِيلَ النَّحِيلَ الَّذِي مَسَّهُ الضَّرُّ وَبَلَغَ مِنْهُ الْجُهْدُ وَكَادَ يَقْتُلُهُ الْجُوعُ . وَكَانَتْ كَلِمَا مَرَّتْ بِجَمَاعَةٍ مِنْ رِجَالِ بَنِي زُهْرَةَ أَوْ سَائِهِمْ قَالَ لَهَا أَوْلَيْتِ لَهَا أَوْلَيْتِ أَوْ هُوَلَاءِ : وَيَسْحَكَ أُمُّ أُنْمَارٍ ! مَا هَذَا الطِّفْلَ الَّذِي تَجْرِيَنِي ؟ ! فَتَجِيبُ : وَمَا أَنْتُمْ وَذَلِكَ ! غُلَامٌ اشْتَرَيْتَهُ لِأَوْثَمِهِ مِنْ خَوْفٍ وَأَطْعَمَهُ مِنْ جُوعٍ وَأَتَّخَذَهُ لِي خَادِمًا وَابْنِي رَفِيقًا . وَبَلَغَتْ أُمُّ أُنْمَارٍ بِالْغُلَامِ دَارِهَا فَأَطْعَمْتَهُ وَسَقَمْتَهُ وَكَسَمْتَهُ حَتَّى رَضِيَ وَحَتَّى ظَهَرَ فِي وَجْهِهِ الْبَائِسُ الْحَزِينُ شَيْءٌ مِنْ رِضَا وَأَمْنٍ وَابْتِسَامٍ . ثُمَّ آخَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِهَا عَبْدِ الْعَزِيِّ وَتَرَكَتَهُمَا يَلْعَبَانِ ، وَانصَرَفَتْ لِشَأْنِهَا ، فَظَوَّفَتْ فِي دُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ وَمَعَهَا أَدَاتُهَا الَّتِي كَانَتْ تَكْسِبُ بِهَا قُوَّتَهَا وَقَوْتَ ابْنِهَا ، وَكَانَتْ خَاتِنَةً . وَكَانَتْ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ : وَيُحِكُّ أُمُّ أُنْمَارٍ ! قَدْ كُنْتُ تَعُولِينَ نَفْسَكَ وَصَبِيًّا وَاحِدًا فَأَصْبَحْتُ تَعُولِينَ نَفْسَكَ وَصَبِيَّيْنِ . ثُمَّ تَقُولُ لِنَفْسِهَا : لَا تَرَاعِي أُمَّ أُنْمَارٍ ! فَإِنَّ هَذَا الصَّبِيَّ مَتَى اسْتَرَدَّ شَيْئًا مِنْ قُوَّةٍ وَتَقَدَّمتْ بِهِ السَّنُّ شَيْئًا فَقَدْ يَنْفَعُكَ وَيُغْلِّ عَلَيْكَ (١)

(١) يغل عليك من المال : يأتيك به . أغل على عياله أتامه بالنفقة .

من المال ما يقيم أودّه (١) وَيُعِينِكَ عَلَى نَائِبَاتِ الْأَيَّامِ .

وكانت أمّ أنمار هذه امرأةٌ خَزَاعِيَّةٌ قد أَلْتُ بِمَكَّةَ وَتَزَوَّجَتْ مِنْ بَعْضِ أَحْلَافِ زُهْرَةَ فِيهَا ، وَعَاشَتْ تَسْعَى بِأَدَاتِهَا فِي دُورِ قَرِيْشٍ ، وَكَانَ الشَّبَابُ قَدْ انْصَرَمَ عَنْهَا ، وَجَعَلَتْ الشَّيْخُوخَةَ تَسْعَى إِلَيْهَا مَبْطُئَةً ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ الصَّمْتِ ، إِلَّا أَنْ تُنْثَارَ إِلَى الْكَلَامِ ، وَهَنَّاكَ لَا تَجِدُ إِلَى السَّكُوتِ وَلَا يَجِدُ إِلَيْهَا السَّكُوتُ سَبِيلًا .

فلما عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلماها قد تصرفا في فنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعمتهما وسقتهما ، ثم أخذت تتحدث إلى الغلام في دعة ورفق . قالت له : ما اسمك يا بني ؟ قال الغلام : خَبَابٌ . قالت أمّ أنمار : خَبَابُ ابْنِ مَنْ ؟ قال الغلام : خَبَابُ بِنِ الْأَرْتِ . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها الصبية حين يكمل خَلْقَهُمْ وَتَسْتَقِيمُ أَلْسِنَتُهُمْ ، وإنما انحرف بها بين شيء إلى اللام والياء . قالت أمّ أنمار : خَبَابُ بِنِ الْأَرْتِ ؟ من أي أحياء العرب أنت يا بني ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب ! لا أدري . قالت أمّ أنمار : أَعْجَمِيَّ أَنْتِ ؟ قال الصبي : أَعْجَمِيَّ ؟ أَعْجَمِيَّ ! لا أدري . قالت أمّ أنمار : وما اسم أمك يا بني ؟ هنالك انتحب الصبي حتى رق له قلب العجوز ، فكفمت عن سؤاله ، وجعلت ترفق به وتكفكف دمه حتى ثاب إليه شيء

(١) الأرد : الاعوجاج والكد والتعب . و يقيم أودّه : يسد حاجته .

من طمأنينة وهدوء ، ثم آوته إلى مضجعه ، وما زالت تلتطف به حتى أسلمته إلى النوم ، وقد أرجأت تعرف قصته إلى غد أو بعد غد . وقد حاولت أمّ أنمار من الغد ومن بعد الغد أن تستوفي قصة الصبي ، فعرفت منه بعد لأى وبعد نحيب وشهيق ، وبعد رفق كثير به وعطف كثير عليه ، أن هؤلاء الرهط من بني عامر أصابوا أسرته على غرة والحيّ خلوف^(١) ، فقاومهم أبوه ما استطاع ، ولكنهم قتلوه على أعين امرأته وابنته الفتاة أسماء وابنه هذا الصبي ، ثم استاقوا ماله وسبوا أهله^(٢) ، وباعوا أمّه في حى من أحياء العرب . وباعوا أخته في حى آخر من أحياء العرب ، وأقبلوا به بمال أبيه . فباعوا المال في غير جهد ، وكسد الصبي في أيديهم^(٣) حتى اشترته أمّ أنمار . ومنذ ذلك الوقت لم تسرّ أمّ أنمار مع هذا الصبي سيرة السيدة مع العبد . وإنما سارت معه سيرة الأمّ مع ابنها . ومضت الشهور والأعوام ، وأنسى الفتى أو كاد ينسى أنه غلام أمّ أنمار . واستيقن الفتى أو كاد يستيقن أنه ابنها وأخو ابنها عبد العزى . وشب وقد وطن نفسه^(٤) على أنه تميمي حليف لبني زهرة . ولما استطاع العمل أسلمته أمّ أنمار إلى رجل قين^(٥) تعلم عنده صناعة الحديد .

(١) الغرة : النقلة . خلوف : غائبون .

(٢) استاقوا ماله : استولوا على إبله وساقوها أمامهم . وسبوا أهله : أسروهم .

(٣) كسد الصبي : لم يبيع لقلّة الراغبين فيه .

(٤) وطن نفسه على الأمر وللأمر : هيأها لفعله وحملها عليه .

(٥) القين : الحداد ، جمعه قيون وأقيان .

والسلاح ولم يبيّف على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه
ولنفسه شيئاً من مال ، واشتغل بخانوت يتخذ فيه صناعة الحديد
والسلاح .

وقد نشأ الغلام نشأة أمثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُجانبون
إلى مكة أو تُلقى آباءهم إليها الأقدار . نشأ غلاماً لا يحسّ ثقل
الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شيء بين ذلك ،
ليس كامل الرق وليس كامل الحرية . يرى من حوله شيوخاً سادة
وشباباً مترفين ؛ ويرى من حوله شيوخاً أذلة مستضعفين وشباباً
تطمح نفوسهم وتقصر أيديهم وهمهم وأسبابهم عن بلوغ ما يطمحون
إليه . وقد استقر في نفوس الشيوخ المستضعفين إذعانٌ للقدر واستسلام
للقضاء ، وأظهروا لساداتهم الإكبار وأضمرُوا لهم البغض والشأن^(١) .
واستقر في نفوس الشباب الطامحين غيظٌ لا تُطفأ ناره ، وحسدٌ
لا تُكسّر حدته^(٢) ، يرون أنهم ليسوا أقل من الشباب المترفين ذكاء
قلوب ، وجلاء عقول ونفاذ بصائر^(٣) ، ولكنهم أقل منهم مالا وأضعف
منهم قوة وأقصر منهم يداً ، قد أمسكتهم الحياة في حال لا تلائمهم
ولا يلائمونها ، وحيل بينهم وبين الرق إلى خير منها ، وقضى عليهم
أن يظلوا أتباعاً ، يَحيون أتباعاً ويموتون أتباعاً ، لا أمل لهم في سعة

(١) الشأن : البغض والعداوة .

(٢) لا تكسر حدته : لا تخف شدته ولا يسكن .

(٣) نفاذ بصائر : سلامة تفكير .

ولا في دعة^(١) ولا في مجد ولا في ارتقاء . فهم كالجياذ المشدودة التي
تعلك^(٢) شكائهما ، ويكاد المرح والنشاط يُخرجها من جلودها .
وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم إلى بعض تحدثوا في حالتهم
تلك فنوناً من الأحاديث ، كانت تنهى بهم دائماً إلى الحسرة الدفينة
والغيظ المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ،
ومن أحياء العرب البادية ، فتنقطع بهم الآمال ، وَيُرَدُّون إلى العجز
واليأس . يرون أن الحياة في مكة خير ما يمكن أن يتاح لهم ولأمثالهم
من ضروب العيش . في مكة الأمن والسلم ، والقوت يُكسب في غير
مشقة شاقة ولا جهده عسير . وليس في مكة مغامرة بالنفس
ولا بالمال . وفي مكة الموسم الذي يجلب إليها وإلى ما حولها قبائل العرب
وتجارها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك
مغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب أن يفتحوا
أبوابها ويخرجوا منها إلى آفاق الأرض البعيدة ، ثم يعودون وقد ملئوا
أيديهم بالمال وتمتعوا أنفسهم بالرحلة والتنقل في الأقطار . ولكن خباباً
يلقى صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث إليه ببعض ما كان
يدور بينهما من حديث حتى يرى منه ازوراراً^(٣) عن اليأس وانحرافاً
عن الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خَطْبُكَ ؟

(١) الدعة : الراحة وتخفف العيش .

(٢) تعلك شكائهما : تمضغ الحديدية المعترضة في فمها .

(٣) الازورار : العذل عن الشيء والانحراف عنه .

إني لأرى من شأنك شيئاً لم أعهدده ، وما أنكرتُ من صديق أحدٍ
كما أنكرك منذ اليوم . فلا يجيبه صديقه بما تعود أن يجيبه
بمثله من رجع الحديث ، وإنما يتلو عليه : « اقرأ باسم ربك
الذي خلق . خلق الإنسان من علق ^(١) . اقرأ وربك الأكرم .
الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . كلا ، إن
الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجوعى » .

فلا يكاد خباب يسمع هذا الكلام حتى تجرى في بدنه رعدة
تصطك لها أسنانه وركبته ^(٢) ، ويتركه صاحبه ساعة ، حتى إذا
هدأت رعدته وثاب إليه أمنه واستقر جسمه ، قال لصاحبه :
ويحك ! أعد على ما قلت ؛ فإني أجد له في قلبي حرّاً ولا يكاد
عقلي يفهمه . ويعيد عليه صاحبه تلك الآيات مرة ومرة .
وإذا خباب يردّ على صاحبه فيتلو :

« كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى
ربك الرجوعى » . ما هذا القول ؟ إنه ليس من عندك ، أين
سمعته ؟ أو ممن سمعته ؟ وهل لي إلى أن أسمع مثله من سبيل ؟ قال
صاحبه : نعم ! إن شئت فاصحبنى إلى الأمين ؛ فإنه يتلو علينا
هذا القول الذي يتنزل عليه من السماء .

(١) العلق : الدم .

(٢) تصطك : تضطرب وتضرب إحداها الأخرى .

ويُقبل أبو جهل ذات صباح على نادى قومه فى المسجد فيقول وهو يضحك ملء شذقيه^(١) ويضرب فخذه بيده : يا معشر قريش ؛ اغدوا إن شئتم على منظر عَجَب . إن ابن الخاتنة قد صبأ ، وإنا محرقوه بالنار ، قبل أن ينتصف النهار .

١١

أقبل مسعود بن غافل مع الحجيج من هذيل ، فنزل فى مكة على عبد بن الحارث بن زُهرة بن كلاب ، وكان بينهما صهر ، فأقام مسعود عند أصهاره حتى انقضى الموسم . فلما هم بالرجوع إلى موطنه من أرض هذيل قال لمضيفه : ألسنت ترى أن عهدك بأرض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق ، وأن لابنتك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أهما ؟ قال عبد بن الحارث : صدقت ، إن عهدى بأرض هذيل لبعيد ، وإن لابنتى هاتين على لحقاً عظيماً ، ولكنك تعلم أن تلك الحرب قد أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع أن تلك الحرب قد وضعت أوزلرها^(٢) وجعلت أمورنا تستقيم قليلاً قليلاً ، فإن قريشاً

(١) الشدق : زاوية الفم ، ويضحك ملء شذقيه : يضحك ضحكاً قوياً .

(٢) وضعت الحرب أوزارها : انقضت . وأوزار الحرب أفعالها .

لاتطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟
 إنكم معشر قريش أهل الحرم وحماة البيت ، يأمن فيكم الخائف ،
 ويأوى إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ؛
 فما ينبغي أن تكون الأرض كلها إلا حرماً لكم تأمنون فيه من خوف
 ولا تعدو عليكم فيه العاديات ^(١) . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك
 كما قلت ، ولكنك رأيت قيساً تغزونا في أرضنا ، لا ترجو بيتنا
 ولا الحرمنا وقاراً ^(٢) . فن يؤمن قريشياً أن تغوله من قيس وأحلافه غائلة ^(٣) ؟
 قال مسعود وقد أحفظه ^(٤) ما سمع : وإنك أنت لتقول ذلك ، ولك
 في هذيل صهر ، وتقول ذلك وابتناك عندي ! قال عبد : وصَلَّاتِكَ
 رحم ! فإنني لا أخاف شيئاً في أرض هذيل ، ولا يخاف غيري
 شيئاً في أرض هذيل ، ولكننا لا نبلغ أرضكم حتى نمرّ بحى من
 أحياء قيس أو أحلافها . قال مسعود : ويحك ! فإن شئت
 فاجعل بينك وبينى حلفاً يحميك من العاديات في كل أرض تصل
 إليها يد هذيل ، ويحميني من الغوائل في كل أرض تبلغها يد قريش .
 قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى أرض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها

(١) تعدو عليكم العاديات : تنزل بكم المصائب . وعدا عليه : وثب ، وظلمه .
 (٢) لا ترجو هنا : لا تخاف . والوقار : العظمة ، أى لا تهاب بيتنا ولا ترهبه .
 (٢) تغوله : تهلكه وتأخذه من حيث لا يدرى ، والغائلة : الداهية المهلكة .
 (٤) أحفظه : أغضبه .

حليفه وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَةَ بن كلاب . فزار عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد ودّ ، وزار بنتها أمّ عبد ، وقبل طفلها الصغير عبدالله بن مسعود . وأقام ما أقام في أرض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى أدركه الموت ، ونشأ الصبي الهذليّ من قبل آبائه ، القرشيّ من قبل أمه ، في أرض هذيل نشأة أمثاله من أهل البادية : حياة أدنى إلى الشظف^(١) منها إلى اللين ، وأقرب إلى العسر منها إلى اليسر . ولا يكاد الصبي يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه ، وحتى تضيق به سبل العيش في أرض نجد ، فيهيط مكة ليأوى إلى أخواله من بني زُهْرَةَ . ويقوم ماشاء الله أن يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذي كان بينهم وبين أبيه . ولم يكن الشباب من أهل مكة يألّفون حياة البطالة والتّرف إلا أن يكونوا من أبناء السادة والأغنياء ، وإنما كان سبيل الفقير من أوساط الناس في قريش وأحلافها إذا بلغ السن التي يستطيع أن يكسب فيها القوت أن يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك بأساً ولا يجد فيه جُناحاً^(٢) . وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يعيش الفقير كلاً^(٣) على آبائه أو أخواله .

وقد سعى عبدالله بن مسعود على رزقه ، واتمسس القوت من

(١) شظف العيش : ضيقه وشدته .

(٢) الجناح : الإنم .

(٣) الكلل : العالة على غيره .

مصادره : فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرب كثيراً من فنون العمل ؛ ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه ولاءم طبيعته الهادئة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السليم ، فأصبح راعياً لعقبة بن أبي معيط ، يرعى عليه غنيمات له في ظاهر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعياً ، قد خلا إلى نفسه ، فأمن غائلة الناس وأمن الناس غوائله .

وإنه لى غنيماته تلك ذات يوم ، وإذا رجلان يقفان عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شيء من خوف أخذ يذهب شيئاً فشيئاً ، فيستريح الرجلان ساعة مما أدركهما من الجهد ، وكأنهما قد اضطُرا إلى كثير من العَدْوِ أمام قوم كانوا يجدّون في آثارهما . وينظر الفتى إليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً . وما الذى يعنيه من أمرهما ، وهو إنما خلا إلى غنيماته تلك ليصرف نفسه عن أمر الناس ويصرف الناس عن أمره ! ولكن أحد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقيننا فإننا ظماء ؟ قال الغلام : إني مؤتمن ، ولن أسقيكما . ولو كانت هذه الغنيمات لى لما بخلت عليكما بما ينقع الغلة ويَسْبِلُ الصدى (١) . فينظر أحد الرجلين إلى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وآثر البرّ . ثم يحول الرجل نظره المطمئن

(١) ينقع : يروى . الغلة : العطش الشديد ، وكذلك الصدى .

إلى الغلام ويقول : فهل عندك من جنداعة ^(١) لم يَبزُرُ عليها الفحل ؟ قال الغلام : أما هذا فنعم . ثم يمضى غير بعيد ويعود ومعه شاة ؛ فيعتقلها الرجل ذو النظر المطمئن ، ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فإذا الضرع قد حفل وإذا الرجل الآخر يأتي صاحبه بصخرة متقعرة ، فيحلب فيها ويسقيه . ثم يسقى الغلام ، ثم يشرب هو ، ثم يقول للضرع : اقلص ^(٢) ، فيعود الضرع كعهده قبل أن تُعتقل الشاة .

هنالك يُبْهَتُ ^(٣) الفتى فينعدّد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف واجماً ذاهلاً يردّد طرفه الحائر بين الرجلين . وبظل الفتى كذلك ، وقد انصرف عنه ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنيين لا ينظران إليه ولا يقولان له شيئاً . ولم يدِرِ الفتى أطال وقوفه ذلك الحائر أم قصر ، ولم يدِرِ الفتى ماذا صنع ولا فيم فكر ببقية يومه ، وإنما يرى نفسه حين تنصرف الشمس إلى مغربها مجردة أذياها تلك الشاحبة التي تتعلق بأعلى الربى ورعوس الجبال ريثما تسحبها الشمس أو يمحوها الليل — يرى نفسه في تلك الساعة رائحاً إلى مكة وبين يديه غنيمات يَهْشُ ^(٤) عليها بعصاه دون أن يفكر فيها أو يحفل بها ؛ وقد امتلأت نفسه بخاطر يُحْسِه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى

(١) الجداعة : الصغيرة .

(٢) أقلص : ارتفع .

(٣) يهت : يدهش ويسكت متعجباً .

(٤) هش الورق بعصاه : خبطه ليسقط .

الغنيات إلى حظيرتها ، وأقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس مع ذلك مُشردّ العقل يلتمس عُقبة بن أبي مُعيط ، فيراه قد جلس في صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوى قرابته ، فيسعى الفتى حتى يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أى أبا الوليد ، أغد^(١) مع غنياتك غيرى من رقيقك وأحلافك ! فلإنى عن رعيها راغب منذ اليوم . قال عقبة : وَيَحْكَ يَا فَتَى هذيل ! ماذا أنكرت منا أو منها ؟ قال الفتى : لم أنكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكنى رغبت عن رعى الغنم . ثم ولتى لا يسمع لما كان يقال له ، ولا يحفل^(٢) بما كان يُظن به ، ولم يعد إلى بيته ، وإنما عاد إلى ذلك المكان الذى كان يرعى فيه غنياته ، واستحضر فى نفسه ذينك الرجلين يعرفهما بعض الروع^(٣) ويثوب إليهما الهدوء قليلاً قليلاً ، ويستسقيانه فيأبى عليهما . واستحضر فى نفسه الشاة الجذاعة التى لا عهد لضرعها باللبن ، ثم رأى ضرعها يحفل^(٤) ، ورأى اللبن يشخب منه فى تلك الصخرة الجوفاء . ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذى شربه ، فلم يذكر أنه شرب مثله قط . وحاول أن يذكر ذلك الكلام الذى دعا به الرجل ذو النظر المطمئن وهو يسمح ضرع الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله

(١) أى اجعل غيرى يفتو مع غنياتك .

(٢) يحفل : يبال ويهتم .

(٣) يبروها : ينزل بهما . الروع : الفزع .

(٤) يحفل : يتجمع فيه اللبن بكثرة .

ذلك ، ورايه من نفسه كلها ريب (١) ؛ فلم يحرص قط على شيء حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقر في قلبه كأنه نُقش فيه نقشاً . فيقول الفتي لنفسه : إن لهذا الرجل ذى النظر المطمئن وصاحبه وكلامه لشأناً . وقد طال مكث الفتي بهذا المكان ساكناً ساكناً يدير طرفه من حوله ، ثم يقاب طرفه في السماء لا يكاد يفكر في شيء ، أو لا يكاد يحقق شيئاً مما يفكر فيه ، وإنما يرى في نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقلاً شاته تلك ماسحاً ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذى سمعه ولم يعقله ، والذى يحاول أن يذكره فلا يجد إلى ذكره سبيلاً .

وينصرف الفتي عن مكانه ذاك حين تقدم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يهيم فيما حوله من الأرض مستأنساً إلى وحشته حريصاً على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمأً ولا جوعاً ، وإنما يجد في فمه ذوق اللبن ، ويرى في عينه صورة ذلك الرجل المطمئن الوداع ، ويسمع في أذنيه صوت ذلك الرجل ممتلاً عذباً يجرى بكلامه ذلك الذى لا يذكره كما يجرى الينبوع الرقيق الصافي بالعذب الزلال . وأنفق الفتي ليلته تلك لم يظله سقف ولم يؤوه مضجع . حتى إذا تجلت شمس النهار

(١) رايه : أوقعه في الريب وهو الشك والتهمة وقلق النفس واضطرابها .

عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتى عرف ذلك الرجل المطمئن وصاحبه ، ومكانهما فيسمى حتى يجد محمداً رسول الله . فإذا دنا منه ألقى النبي إليه نظرة مطمئنة ، وابتسم له ، والفتى يدنو منه حتى يبلغه ، ثم يجلس بين يديه ، ثم يقول له في صوت رقيق يضطرب اضطراباً خفياً : علمني من هذا الكلام الذي سمعته منك أمس . قال النبي مبتسماً له : إنك غلامٌ مُعلِّمٌ . ومنذ ذلك الوقت استقر في نفس الفتى أنه لم يُخاق لنفسه ولا لأهله ولا لغنيات عقبه بن أبي معيط ، وإنما خلق ليلزم محمداً هذا الأمين ، فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته .

وكان الفتى خفيفاً نحيفاً دقيق الجسم سريع الحركة عظيم النشاط . فلم يكذب يلزم رسول الله أياماً ويسمع منه ويحفظ ما قال حتى رآته قریش في أنحاء مكة متنقلاً بذكر محمد وكلامه يذيعه في كل وجه ، ويُفْشيه في كل مجلس ، ويتحدث به في كل مكان . وكان لُحْفته وسُرْعته مصدر عناء لقریش ، تراه في هذا المكان فلا تكاد تهم به حتى تنظر فإذا هو قد استخفى وانتقل إلى مكان آخر ، لا يدرون كيف انتقل إليه . فكان المتبعون للنبي وأصحابه يرون هذا الفتى في كل مكان ولا يكادون يظفرون به مع ذلك في أي مكان ! حتى قال أبو جهل ذات يوم : ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذا الفتى الهذلي ،

أراه في كل وجه مذيعاً دعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس ،
 ولا أجد لي عليه سيلاً . ولو قد ظفرت به لما أبقيت عليه (١) . قال عتبة
 ابن أبي ربيعة : مهلاً أبا الحكم ، لا تبطش بهذا الفتي الهذلي ،
 فإن زهرة لن تُسلمه ، وإنك إن تنله بسوء تؤلب هذيلاً كلها (٢) على
 قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شيء كما تحرص على
 أمنه وسلمه . قال أبو جهل : هو ذاك ، ولكن أقسم مع ذلك
 لأذيقن هذا الفتي بعض ما يكره إن قدرت عليه . ولم يقدر عليه
 أبو جهل إلا بأخرة حين أذن النبي لأصحابه في الهجرة إلى أرض الحبشة .
 مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد ، فرأى رهطاً
 من الناس قد تحلقوا (٣) حول رجل ضئيل نحيل ، ونخيل إليه من بعيد
 أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له ، فاستأنى (٤) أبو جهل في مشيته ، وضاعل
 من شخصه ، وتمسح بالجدران ، ومضى كذلك مستخفياً أو
 كالمستخفي ، حتى فجأ القوم ، فوقف منهم غير بعيد ، يراهم
 ولا يرونه ، وتسمع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل ، فإذا صرت
 عذب يتلو كلاماً عذباً ، فيصغي أبو جهل بنفسه كلها ليسمع
 ما يجري به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب ، وإذا ابن

(١) أبقيت عليه : تركته حياً .

(٢) تؤلب هذيلاً : تنير عداوتها .

(٣) تحلقوا : تجمعوا في حلقة .

(٤) استأنى : تمهل .

مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الروائع من سورة الفرقان :
 « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا .
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ،
 إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
 وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
 وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنَلِقَ
 أَثَامًا . يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَذُودُ فِيهِ مَهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ
 وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ
 إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرَّوْا
 كِرَامًا . . . » .

وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه ،
 ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ،
 يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تحبب فيه الزفرات : إني والله
 لأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ . ولكن أبا جهل لا يُرسل طبعه على
 سجيته ، وإنما يدعو حسده وكبريائه وأنفته ، ثم ينصب على
 أولئك الرهط كما ينصب الصقر على فريسته وهو يصيح :
 بؤساً لكم من رهط أسوء ! ما رأيت كاليوم جراءة . إنكم لتجتمعون

حول هذا الرجل وتستمعون له ، وليست أندية قریش منكم ببعيد .
 فما يمنعكم أن تقتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يكذب
 أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت
 المنكر حتى تفرقوا سراعاً . وظل ابن مسعود قائماً مكانه لا يریم^(١) .
 فيدنو منه أبو جهل مُغضباً وهو يقول : ويلك يا ابن أم عبد !
 ما تزال تفسد علينا أحلافنا وريقنا ، وما أراك منتهياً حتى تصيبك
 منى بائقة^(٢) . وهم ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبا جهل
 لا يمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشججه . وقد أخذ الدم يتحدّر على
 وجهه ، ولكنه لم يخفل بذلك ، وإنما يسرع في خفة إلى أبي جهل
 وهو يقول : فأما إذا فعلت ما فعلت فخذها وأنا فتى هذيل !
 ثم يدفع في صدر أبي جهل بإحدى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ،
 ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلاً ، ويتركه قائماً واجماً قد أخذه الدهول ،
 لم يكن يُقدّر أن حليفاً من أحلاف قریش يستطيع أن يدفع في
 صدره ويلطم حرّ وجهه . ثم تثوب إلى أبي جهل نفسه فيصيح
 بابن مسعود : لن تُفلت بها يا راعي الغنم . قال ابن مسعود :
 ولن تُفلت بما فعلت يا عدوّ الله .

ويمضي كلا الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقى رهطاً
 من أصحاب النبي ، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفي عينيه دمعتان

(١) لا يریم : لا يبرح ولا يتنقل .

(٢) البائقة : الهلاك والشر .

تترقرقان : لا مقام لي بمكة منذ اليوم ؛ فقد لطمت وجه أبي جهل .
والله إني بالهجرة لفرح ، وإني بها لخزون ؛ فيها ثواب الله ومغفرته ،
وفيهما فراق رسول الله دهرأ لا أدرى أيقصر أم يطول . وأما أبو جهل
فيعود إلى نادى قومه وقد انكسرت نفسه واستخذى ضميره . ولكنه
على ذلك يُظهر الغضب والكبرياء ويقول لأهل ناديه : ويحكم
يا بني مخزوم ! إن كانت لكم بقية من عزة فأمكنوني من ابن
أم عبد ؛ فإنه قد أتى إلى ذنباً لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم
عبد الله بن مسعود في مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقدرون
عليه ولا يرى أبو جهل تخصمه إلا يوم بدر .

أقبل سلام بن حبير القسرى من الشام . كعهده في كل
عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضروب من المتاع ،
بعضه مما تخرج الشام . وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه
مما تحمله الروم إلى دمشق وبصرى وتبيعه من قوافل العرب واليهود
ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قبصر ولا يبلغها
سلطانه في نجد والحجاز وفي تهامة وايمن . ولم يكد سلام بن حبير

يستقر في بني قريظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذلك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه من حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون . ولم تمض أيام حتى كان سلام بن حبير قد باع تجارته وأفاد منها مالا كثيراً . ولولا هذا الصبي اللعني عرضه سلام على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً معتبطاً مجولاً في أحياء يثرب مرسلاً رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفي أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبي كان غصّة (١) في حلقة وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بصرى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذلك الذي أداه مثليه أو أمثاله . ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سلاماً جالباً للرفيق أو مستجراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبي ويلح في عرضه ويرغّب في شرائه أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشترى سلام هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب . وكان الصبي بادي السقم ظاهر

(١) الغصة : ما يعترض حلق الشارب . والمراد عالقاً وحائلاً دون غبطته .

الضر ، كأنه قد لقي من الذين اتَّجروا فيه شرًّا وُنكرًا . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سلام يزعم للناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد^(١) صنَّاعُ اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده . وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصطخر حتى استقرت في الأبلَّة ، فلكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصرفها في أطراف العراق . فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِرْ جواباً^(٢) ، وإنما يقول : زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلَّة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرَّض به بنو كلب في بصرى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيتُه فرقاً له قلبي ومالت إليه نفسي ، وقدَّرت أن سيكون له شأن أي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض . هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك^(٣) إذن ؟ فيقول : إن ما أنفقت من المال فيه أحب إليّ وآثر عندي منه .

(١) صنَّاع : ماهر حاذق في عمله .

(٢) لم يرد جواباً .

(٣) تمسكه عليك : تحتفظ به لنفسك .

وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لى أهل أكله إليهم ؟ والصبي مع ذلك ذكى القلب صناع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده . انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شىء . إنه سريع الحس يخطف ما يرى دون أن يُشبهته (١) . وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما تجذوتان . ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون ويتصرفون ويتركون سلاماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمرثببببب بنت يعار الأوسية بسلام ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا فى بعض أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترجمه ، ثم لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع فى قلبها الرغبة فى شرائه . قالت ثببببب : ما اسم صبيبك هذا يا ابن حبيب ؟ قال سلام : زعم من باعه لى من بنى كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدرى ؛ ولكنى اشتريته من كلبى يسمى معقبلا . وزعم لى أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثببببب : أقبلت من إصطخر فنزلت الأبله وزارعت النبط وصرقت تجارتها فى أطراف العراق . قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فإنى له مشربة ، فبكم تبيعه منى ؟ قال سلام وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبى فى وجهه الجذ والحزم : فإنى لا أريد إلا ما أدبت من ثمن

(١) دون أن يشبهه : دون أن يعرفه حق المعرفة .

وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودى فأحسن الربح ، وربحت هى بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوم بالدرهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبر والمعروف ، لم تُرد إلى شىء آخر . وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : بعداً لهذه الحياة التى لا يرحم الإنسان فيها الإنسان^(١) ، ولا يرأف القوى فيها بالضعيف ، ولا تترقّ فيها القلوب للأُمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين يشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة يأوى إليها؛ وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لى صبيّاً مثله فعدا عليه العادون ومَضُوا به فى غير مذهب من الأرض^(٢) كيف كنت ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبي آخر الدهر ! هيات ! لو كان لى صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به فى غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة ومسية ، ولذكرته يَقْظى ونائمة ، ولتبعته نفسى وذهبت فى تصوّر حاله المذاهب ، ولما اطمأنت للعيش ولا نَعِمْتَ بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهى تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهى لا ترى اختطافه ، وكانت

(١) بعداً له : دعاه عليه ، أى أبعد الله .

(٢) عدا : وثب . مذهب : طريق .

تَرَى تَوَلَّهَ^(١) تَلَكَ الْأُمَّةَ وَتَفْجِعُهَا وَحَسْرَتَهَا الَّتِي لَا تَخْمَدُ وَلَوْعَتَهَا الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ وَدَمُوعَهَا الَّتِي لَا تَغِيضُ . وَكَانَتْ تَقُولُ لِنَفْسِهَا فِي نَفْسِهَا وَهِيَ عَائِدَةٌ بِالصَّبِيِّ إِلَى دَارِهَا : هَذَا غَلَامٌ قَدْ اخْتَطَفَ مِنْ مَلِكِ كَسْرَى ، لَمْ يَسْتَطِعْ جُنْدُ كَسْرَى أَنْ يَحْمُوهُ وَلَا أَنْ يَرُدُّوهُ عَنْهُ الْعَادِيَاتُ ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ فِي يَثْرِبَ ، هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْخَائِفَةُ الَّتِي يَحِيطُ بِهَا الْيَهُودُ وَالْأَعْرَابُ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهَا ، وَالَّتِي يَسْلُبُ بَعْضُ أَهْلِهَا السِّيفَ عَلَى بَعْضٍ ، وَالَّتِي لَا يَأْمَنُ أَهْلُهَا أَنْ تَدُورَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ ، أَوْ تَنْوِبَهُمْ نَائِبَةٌ ، أَوْ يُلْمَ بِهِمْ خَطْبٌ مِنَ الْخَطُوبِ ؟ فَلَمَّا بَلَغَتْ الدَّارَ وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا ، وَعَسْنِيَّتْ بِالصَّبِيِّ حَتَّى أَمِنَ بَعْدَ خَوْفٍ وَأَنْسَ بَعْدَ وَحْشَةٍ وَطَعْمَ بَعْدَ جُوعٍ ، قَالَتْ لِنَفْسِهَا فِي نَفْسِهَا : هِيَئَاتِ أَنْ أَتَّخِذَ الْأَزْوَاجَ أَوْ أَنْ يَكُونَ لِي مِنَ الْوَلَدِ مَنْ يَصِيبُهُ مِثْلُ مَا أَصَابَ هَذَا الصَّبِيَّ ، وَمَنْ أَذُوقُ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالشُّكْلِ مِثْلَ مَا ذَاقْتُ فِي هَذَا الصَّبِيِّ أُمَّهُ تَلَكَ الْفَارَسِيَّةَ وَنَسَاءَ أُمَّثَالَهَا كَثِيرًا . وَلَوْ اسْتَجَابَتْ الْحَيَاةُ لِثَبِيْتَةٍ لِأَنْفَقْتُ أَيَّامَهَا مَعْنِيَةَ هَذَا الصَّبِيِّ الْفَارَسِيِّ ، وَلَا تَخَذْتَهُ لِنَفْسِهَا وَلِدًّا أَوْ شَيْئًا يَشْبَهُ الْوَلَدَ . وَلَكِنَّ النَّاسَ يَقْدَرُونَ وَيَدْبُرُونَ ، وَالْأَيَّامُ تَجْرِي عَلَى غَيْرِ مَا قَدَّرُوا وَدَبَّرُوا .

فَقَدْ عُنِيَتْ ثَبِيْتَةُ بِسَالِمٍ حَتَّى رَيَا جِسْمَهُ وَنَمَا عَقْلَهُ وَأَصْبَحَ غَلَامًا ذَكِيَّ الْقَلْبِ سَرِيعَ الْحَسِّ حَدِيدَ اللِّسَانِ كَمَا قَدَّرَ الْيَهُودِيُّ ،

(١) التوله : الحزن الشديد .

أو أكثر مما قدر . وكانت ثبينة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية .
وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول
يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على أهلها في ذلك حتى أعيهم .
ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنصرفهم من الشام ذات عام ،
فيمكثون فيها أياماً . ويسمع أبو حذيفة هُشيم بن عتبة بن ربيعة
بحديث ثبينة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب
أن يتزيد من أخبارها فيُلمّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتمتع
ثبينة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما
سمع عنها فرضى . وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتع
عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها
وذوى المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم
الذي رُدّ عنه أصحاب الفيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرة
الآثمون ، شكت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخطبة هذا المكي .
ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش ؛ فلا يكاد
يستقر فيها حتى ينكر من أمرها بعض الشيء . لقد أصبح فغدا
على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه
يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً . تريد
نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها
لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلاً . يحس
أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكان حدثاً قد حدث

في مكة لا يدري أيسير هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فتغير من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه . ثم يتلمس بعض صديقه في أندية قریش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموي ؟ وأين طلحة بن عبدالله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوى مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يؤثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوى بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضع له وجه الحزم من أمره . إن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فماله يسأل عنهم ولا يُلم بهم ؛ ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قصد فلان أو فلان من أولئك الصديق .

وقد ألم بعثمان بن عفان وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن . كان عثمان قد تخطى الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعد ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زلذته الصحبة في الإسفار قوة وأيداً . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاه صديقه بما تعود أن يتلقاه به من البشر والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال أبو حذيفة : لقد التمتك^(١)

(١) التمتك : طلبتك وبحثت عنك .

أبا عمرو في أندية قریش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشط لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقاله ، فأمعن عثمان في الصمت . قال أبو حذيفة : إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللات والعزى . ولكن عثمان لم يكده يسمع نفسه هذا حتى لوى وجهه^(١) . وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد ارتدّ وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : ويحك أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبينى من الود ، وإنك لي لخليل وفيّ أمين ، فأظهِرنى على ذات نفسك . قال عثمان في صوت وادع لين : فإن شئت أن تستبقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً . هنالك وجم^(٢) أبو حذيفة وجمه قصيرة ، ثم قال : ويحك أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبوت ؟ قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أصبؤ أبا حذيفة ، وإنما اهتديت . إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السن بعد ، ولكن رأيت الدنيا وطوّفت في أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وحرّبت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب^(٣) من خشب وصخر صورها الناس بأيديهم ، ويستطيع

(١) لوى وجهه : أماله وأعرض . (٢) وجم : سكت وعجز عن التكلم .

(٣) الأنصاب : جمع نصب ، وهو ما عبد من دون الله من الأصنام .

من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً^(١)؟ قال أبو حذيفة: ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى وحصحص الحق^(٢)؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدي وَتَتَّبِعَ الحق ، متى تستصحبني إلى محمد؟ قال عثمان : الآن إن شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بإسلامه على ثبِيتة ؛ فلم تكذ تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فالت إليه نفسه ، وإذا هو يؤمن كما آمننا . ولم يتقدّم الليل حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً .

وتمضى أيام قليلة وإذا ثبِيتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يفكّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً . فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسي وتقول له : اذهب سالم فإني قد سيبتك لله عزّ وجلّ ، فوال من شئت . قال سالم لأبي حذيفة : فهل لك في أن تكون لي ولياً؟ قال أبو حذيفة : هيهات ! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لي منذ اليوم .

(١) جُذاذاً : قطعاً .

(٢) أسفر : أضاء . حصحص : بان وظهر .

دخل عبد الله بن سَهيل بن عمرو على أخته سَهلة بنت سَهيل زائراً عند زوجها أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، فرأى منها إقبالا عليه أكثر مما تعود أن يرى منها منذ حين ، ووقع ذلك من نفسه موقِعاً حسناً ، فجعل يحدث أخته بما شاء من أحاديث قومه يريد أن يسرها ويُفكها : يعث بالشيوخ وذوى الأسنان من قريش طوراً ، ويتندر بمرح الشباب من قريش طوراً آخر ، وأخته تسمع له فتضحك وتعجب ، وَهَمَّ أن تشاركه في بعض حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث أن تكف نفسها عن ذلك وأن تُؤثر الصمت ، وتدعوه إلى أن يقول . وقد لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض لها شيء من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم تُثوب إليه .

وقد أنكر الفتي من أخته نشاطها وذهولها جميعاً ، ولكنه أسر ذلك في نفسه ولم يبده لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ضاحكاً مضحكاً ، حتى إذا أنفق معها ساعة غير قصيرة همَّ

أن ينصرف . وقامت أخته تريد أن تسعى معه مشيعة إلى فناء الدار .
ولكن عبد الله ينحني على أخته ، يريد أن يضمها إليه ، وأن
يقبلها . فَتَسُدُّعَرُ سَهْلَةً وتراجع شيئاً . وينظر إليها عبد الله في
شيء من حيرة وَدَهَشٍ . وتنظر هي إلى عبد الله في دهش وحيرة .
ثم يعود عبد الله إلى مكانه فيجلس . وتظل سهلة قائمة واجمة كأنها
لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول . قال عبد الله بعد
هنيهة : إن أمرك لعجيب منذ اليوم يا سهلة . أليس قد أزمعتم
الهجرة من غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروع : أى هجرة ؟
هنالك أغرق عبد الله في الضحك . ثم قال : ما رأيت كاللوم فتاة
غرة^(١) تريد أن تمكر بأخيها . إن هجرة أصحاب محمد إلى أرض الحبشة
ليست سرّاً مكتوماً . وإنما هو حديث الناس في مجالسهم وحديث
الملأ^(٢) من قريش في أنديتهم . وإن قريشاً لو شاءت لأخذت على
أصحاب محمد طرق هجرتهم^(٣) . ولكنها لا تشاء . ولعلها لا تكره هذه
الهجرة . فقد جعلت قريش تسأم محمداً وأصحابه ، وتسأم الكيد لهم
والمكر بهم والإلحاح على المستضعفين منهم بالفتنة والعذاب . وقد
فرحت قريش بهجرتهم هذه ، وقال الملأ منها شرّاً يُصْرَفُ عنّا
وراحة تُهدى إلينا . وإن أعين قريش ليقظة ساهرة على محمد

(١) الغر : من لا خبرة له .

(٢) الملأ : السادة الأشراف .

(٣) أخذ عليه الطريق : تعرض له ومنعه .

ونفر من أصحابه ؛ فهؤلاء رهائن قريش لا تُخلى بينهم وبين الطريق إن أرادوا أن يدفعوا أنفسهم إلى الطريق . فأما المستضعفون وأشباه المستضعفين فليس لقريش فيهم أرب .

وكانت سهلة تسمع لهذا الحديث وآيات الرويع والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهي مع ذلك قائمة تسمع من أخيها ولا ترد عليه جواباً . قال عبد الله : وقد ظننت إذن وظن زوجك أن قريشاً عنكما غافلة . هيهات ! إن عتبةَ والوليد بن عتبة ليعلمان من أمر أبي حذيفة مثل ما يعلم سهيل وعبد الله من أمر سهلة ؛ وإن قريشاً لتعلم من أمركما مثل ما يعلم أبواكما ، ولكن قريشاً لا تحبسكما لأن لها في أبويكما وأخويكما أرباً . ولكننا نحن لا نجسكما أيضاً ؛ لأننا نُؤثركما بالحب في أعماق نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستر والاستخفاء هذه التي تحتملانها في مشقة أى مشقة وعناء أى عناء ، ولا نضيق بأن تجدا في هجرتكما هذه أمناً بعد خوف وفرجاً بعد حرج . ولولا أن تقول قريش : ضَعُفَ سهيل فلم يُطقْ على فراق ابنته صبراً لما زرتك الآن وحدى ولزارك أبوك فنظر إليك قبل فراق ليس يدري ولست تدرين أيطول أم يقصر ، ولكنه يرى كما أنك ترين أوله ، ولا يعرف كما أنك لا تعرفين آخره . وليس يعينى ما تقول قريش فيّ ، وعسى أن أجد في مقت قريش لى رضا وفي استخفافها بي جبوراً . أسمعت الآن عنى ؟ قالت سهلة : ألم تر أنك منذ دخلت علىّ إنما تتحدث وحدك وأنا أسمع ولا أرد عليك ؟ ! قال

عبد الله : بلى ! وهذا بعض ما أثار في نفسي ما ترين من العجب .
ولكني لم أفهم هذا الذعر الذي اشتعل عليك حين أردت أن أضمك
وأن أقبلك مُودِّعاً . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامه حلوة
ارتسمت على ثغرها وضحكة عذبة جرت في صوتها : فإنك مُشرك .
وما أحبّ مس المشركين . قال عبد الله وقد ظهر في وجهه الحزم :
أوقدْ بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصدّوا عن
إخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى في صوتها
حزم صارم لم يثبت له قلب الفتى وإنما اتصل له خفقانه : لو
قد أحببت محمداً واستجبت لدينه لعرفت أن الصد عن الإخوان
والآباء في سبيله ليس شيئاً . تَعَلَّمْ^(١) يا أخي أنا نحب الله ورسوله
أكثر مما نحب آباءنا وأمهاتنا وإخواننا ، وأكثر مما نحب الدنيا كلها
وما فيها من كل شيء ، وأكثر مما نحب أنفسنا . ولقد حدثتني آنفاً
بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، فتعلم أنا نحن عنها غير راضين .
ولولا أن أذن لنا فيها محمد ودعانا إليها لآثرنا الفتنة والعذاب والموت
قريباً منه على الدعة والسعة والراحة والروح والأمن والرضا بعيداً
عنه في أى قطر من أقطار الأرض . قال عبد الله وقد أطرقت
مفكراً : هو ذاك إذن ! محمد أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم
وإخوانكم ومن الدنيا كلها ومما فيها من كل شيء ! ومحمد أحبّ إليكم

(١) تعلم : اعلم .

من أنفسكم ؛ قالت سهلة : ولو قد أحببت محمداً كما نحبه لعرف قلبك الحب الذي يُعطى ولا يريد أن يأخذ ، والذي لا يبتغى لنفسه ثمناً من لذة الجسم أو نعيم النفس . ويدخل أبو حذيفة فيرى عبد الله مطرقاً مغرقاً في التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر إليه نظرات حازمة قوية ، ولكن فيها شيئاً من أمل وشيئاً من حنان . فينظر أبو حذيفة إلى امرأته ثم ينظر إلى عبد الله ثم يقول في صوت عميق : هل تنبئيني يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟ وهتت سهلة أن تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته إلى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! . . . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ إن لكم لألفاظاً تدبرونها في أفواهكم وتقرعون بها آذاننا ، ولكننا لا نحصل لها معنى . هذه تزعم أنكم تحبون محمداً أكثر مما تحبون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؛ وما عسى أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ؟ قال أبو حذيفة في صوت رقيق : لم يصنع محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغي ، وجلاها من الضلال ، واستنزل عليها السكينة التي ملأها أمناً ورضاً وثقة وأملاً وحالت بينها وبين الخوف والشك والفتنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

ولا يكاد الفتي يسمع هاتين الآيتين حتى تأخذه رِعْدَةٌ عَنيفَةٌ
 ويتفصّد^(١) جبينه عرقاً . ويمضى أبو حذيفة في تلاوته فيقرأ : « إن
 الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعَوْاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
 اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ » .

ولا يبلغ أبو حذيفة آخر هذه الآيات حتى يهدأ رُوع الفتي
 ويثوب إلى قلبه الأمن ، وينظر إلى أبي حذيفة مبتسماً ، ويقول
 في صوت تشيع فيه دُعابة حلوة : وَيُحْك ! إني أحسن كأن
 سَكَيْتِكُمْ هذه تسعى إلى قلبي . أذهب أنت بي أبا حذيفة إلى
 محمد لأتلقاها منه ؟

وأسمى عبد الله مسلماً قد عاد إلى أخته وجلس إليها وإلى
 أبي حذيفة وسالم يسمع منهم القرآن . تقول له سهلة مُنصرَفة عنها
 حين تقدم الليل : أمهاجر أنت معنا يا أخي ؟ قال عبد الله :
 عزيزٌ عليَّ أن تنأى بكم الدار ، ولكني لم أسمع من رسول الله القرآن
 وحديثه إلا اليوم ، وإني لأؤثر أن ألزمه ما وسعني لزومه ، فاذهبوا
 راشدين .

وأصبح أبو حذيفة فانطلق بامرأته وابنه سالم فيمن انطلق

(١) يتفصّد : يسيل .

إلى أرض الحبشة من المسلمين . حتى إذا كانت الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة كان عبد الله بن سهيل أحد المشاركين فيها . وقد جلس سهيل في داره محزوناً كثيراً ، وافتقدته قريش حين رأت تخلفه عن أنديتها أياماً ، فأقبل عتبة بن ربيعة وشبيهه بن ربيعة وأبو جهل عمرو بن هشام فاستأذنوا عليه . ولو قد أطاع نفسه لمنعهم الإذن ، ولكن للسادة من قريش حقوقاً لا يلتوى بها . فدخل القوم على سهيل ، ولا يكادون يتحدثون إليه حتى يروا حزنه وضيق صدره . يقول عتبة بن ربيعة : وَيَحْكُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ! لَقَدْ هَاجَرَ ابْنِي فَمَا سَاءَ تَنِي هَجْرَتِهِ ، فيقول سهيل : وهل جرّ علينا الشرّ كله إلا ابنك ! لم يكفه أن يُصِيبِي ابْنِي حتى أصبأ أخاها وانصرف بهما جميعاً إلى أرض النجاشي . قال أبو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدّب سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لي قريش لاجتثت الشجرة من أصلها^(١) . فيقول شيبة بن ربيعة : على رسلك^(٢) أبا الحكم ! أما هذه فلم يأت إبانها^(٣) بعد .

وما زال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه إلى ما ألف منهم وألفوا منه . ويمضي من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضي ، وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون إلى مكة ، منهم من يعلن

(١) اجتث الشجرة : قلمها .

(٢) على رسلك : تمهل .

(٣) إبانها : وقتها وحينها .

عودته ومنهم من يستخفى بها . وعاد في هؤلاء نفر عبد الله بن سهيل ؛
 فيلقاه أبوه أحسن لقاء ، ويتحدث إليه حديث البشاشة والبشر ،
 والفتى متحفظ متأتم ، كأنه يرى في الاستماع لحديث أبيه بأساً .
 ولكن سهيلاً يضرب إحدى يديه بالأخرى ، فما هي إلا أن يستجيب
 له أعبُد شِداد يُحيطان بعبد الله ، فيوثقونه ثم يحملونه سجيناً إلى
 أعماق الدار ، ومنذ اليوم يُدَيِّقه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

١٤

لم تعرف مكة في تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ،
 وإن كانت قد عرفت بعده أياماً مشهودة ليست أقل منه شدة
 وَنُكْرًا .

كانت بلدًا آمنًا . لا يعرف أهله كيداً ولا مكرًا ولا بغضاً ولا
 عداء ، وإنما يستقبلون أمورهم راضين عنها مبهجين بها مطمئنين
 إليها . يكون بينهم التنافس في المال والاستباق إلى الخجد ، ولكنهم
 على ذلك لا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ،
 وإنما تجرى أمورهم على الدعة والإسماح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم
 أن يقول بعضهم لبعض قليلاً أو كثيراً مما يكره من القول ، ثم
 لا يلبثون أن يعود بعضهم على بعض بالعافية ، وأن يُهدى بعضهم إلى
 بعض ألوان البر والمعروف . وقد عرفت العرب القاصية والدانية

ذلك من أمرهم ، فهوت (١) لإيهم الأفتدة ، وعظفت عليهم القلوب ،
وانصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النفوس ، حتى أصبح بلدهم
وماحوله من الأرض حَرَمًا آمناً يأوى إليه الخائف ويلوذ به الملهوف (٢).
ولكن مكة تُصبح في ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ،
فلأت بطاحها وجبالها ورباها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ،
ولكنها أضمرت لها عبوساً أى عبوس ، فلأت قلوب نفر من أبنائها
بالظلمة المظلمة والكيده المفضى بأهله إلى شر ما ينتهى إليه الناس .

أصبحت قريش في ذلك اليوم ، فغدا الملاً منها إلى أنديةهم
في المسجد ، وأخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، إلا نفر
منهم لم يذهبوا إلى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا
أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يسروا (٣) عن أنفسهم بصيد أو طرد
أو مجون . وإنما شغلوا بشيء غير ذلك كله : شغلوا بتهيئة العذاب
وجه النهار ، وشغلوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشغلوا
بالتحدث عن العذاب آخر النهار ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم ،
وإنما تحدثت عنه قريش كلها ؛ ولم تبق في مكة دار إلا ذكر
فيها أمر ياسر وامراته وابنه ، وأمر صهيب ، وأمر خباب ، وأمر
بلال . وكانت أحاديث قريش عما صُب على هؤلاء الرهط من العذاب

(١) هوت : مالت وأحبت .

(٢) الملهوف : الحزين ذهب له مال أو فجع بحميم ، والمظلوم ينادى ويستغيث .

(٣) يسرى عنه نفسه : يرفه ويكشف عنها ألمه .

مختلفة أشد الاختلاف : فأمّا شيوخ قريش وذوو أحلامها فكانوا
يحدون في سيرة أبي جهل وأضرابه غلوّاً في الشرّ وإسرافاً في القسوة ،
ولكنهم على ذلك كانوا يعلنون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوف
محمدّاً وأصحابه وتردهم إلى شيء من القصد والأناة ، وإلى أنها قد
تَرَدَّعُ^(١) الرقيق والمستضعفين وتُريهم ما ينتظر الذين يَصْبُونَ منهم
إلى محمد وأصحابه من البأس والضر والعذاب . فكانت ضمايرهم تُتنكر
وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف . وأما الشباب من قريش فكان
أكثرهم يرى في هذا البدع لونا مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال
عن النفس وعمّا تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والمجون . وفي
غرائز الناس ميلٌ إلى الشرّ ، واستحبابٌ للنكر ، واستعداد للعذاب
حين يمس غيرهم ويدفعهم إلى فنون من الألم وضروب من الحركات
التي يثيرها الألم ، وإلى ألوان من الشكاة التي يبتعثها الألم .

وفي قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفي أحلامهم نَزَقٌ وطيش^(٢) .
فهم ينظرون إلى من يُمتحنُ في بدنه ، ويأتي من الحركة والقول
ما يُسليهم ويُلهمهم ، على أنه متاع لأبصارهم ونفوسهم ؛ ولا يقدر
أن هذا العذاب يمكن أن يُصَبَّ عليهم ، وأن هذه الحركات
والشكاة يمكن أن تصدر عنهم ، فتضحك منهم قوماً آخرين .
ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصَبَّ عليهم العذاب

(١) تردع : تكف وترد .

(٢) النزق والطيش : الخفة .

لجَنَّبَ الناسَ شراً كثيراً . فكان أولئك الشباب من قريش يتحدثون
 ببراءة أبي جهل فيما كان يخترع من ألوان الفتنة والحمنة راضين عنها
 معجبين بها . وكانوا يتحدثون عن احتمال أولئك الرهط للفتنة
 في أنفسهم بالجلد والصبر والأناة في كثير من الإعجاب . كما
 كانوا يتحدثون في عبث وسخرية بما كانت أجسام أولئك الرهط
 تأتي من الحركات حين يمسه العذاب .

قال الحارث بن هشام لابن أخيه عكرمة بن أبي جهل :
 ألم تر إلى سُمَيَّةَ كيف كان جسمها يتلوى حين كانت السياط
 تلعبه بغير حساب ، دون أن يفترّ فيها عن صيحة أو أنة أو شهيق
 وهي التي كنا نُثيرها إلى الخوف أو نثير الخوف إليها بأيسر ما كنا
 تأتي من الحركات ، نعبث بها ونسخر منها حين نراها تتور
 كأنما دُفعت من الأرض بلولب خفي ! قال عكرمة : لم أعجب
 لشيء كما أعجبتُ لزوجها الشيخ الذي مُزق جسمه بالسياط وحرّق
 بالنار ليذكر الآلهة بخير ، فلم يظفر منه أبي إلا بشتم الآلهة والاستهزاء
 بها . أما ابنه عمار فقد سكت صوته ، وسكن جسمه للعذاب ،
 وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مُرّة ، ما أدرى أكانت تصور
 الرضا أم كانت تصور الغيظ ! ولكنها ارتسمت في نفسى أشدّ
 مما ارتسمت على ثغره ؛ وما أرى أنها ستغيب عنى آخر الدهر .
 قال صفوان بن أمية : فكيف لو رأينا بلالاً ذلك الحبشي والفتية
 من الأحرار والرقيق يتنازعون جسمه يأخذ كلّ منهم بطرف ، كأنما

كانوا يريدون أن يقتسموه بينهم ، وهو في أثناء ذلك لا يئن ولا يشكو وإنما يثنى على محمد ويذكر إلهه ذلك بالخير . قال خالد بن الوليد : أما أنا فقد رأيت من صهيب عجباً : رأيت القوم يعذبونه بالنار وينوشونه^(١) بالرماح ويلهبون جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث إليهم حديث من لا يخفل بما كانوا ينالونه به من الأذى . وربما اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجرى على جبينه شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث أن تثوب إليه نفسه ويعود إلى التحدث إلى معذبيه في بعض أمرهم ، كأنهم لم ينالوه بمكروه . وما يزالون به يعذبونه بالحديد والنار والسياط ، وما يزال بهم يعذبهم بهدوئه وثباته وتحدثه إليهم في أيسر أمورهم ، حتى إذا أملتهم أو كاد يُملهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا في ذلك عن أطوارهم ، فيسعى إلى صهيب شيء من ذهول ، ثم يأخذه شيء يشبه السكر ، فيمضى في حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم أنهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفون^(٢) عنه مكاويهم ورماحهم وسياطهم ، وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإني لبعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : اسكت لا يسمعك ابن عمك فيصيبك منه بعض ما تكره .

(١) ينوشونه : يتناولونه ويطعنونه .

(٢) يكفون : يمتنعون .

كذلك كان الشباب من قريش يُعجبون بأولئك الرهط^(١) المعذبين
ويُعجبون منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر .
وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويعينون عليه حين
يطلب إليهم أن يعينوا عليه ، تكرهه نفوسهم وترضى عنه ألسنتهم ؛
قد ملأ الخوف أكثرهم ، وتسرب الحب والإشفاق إلى قلوب
فريق منهم ؛ فهم ينتهزون الفرص ويتربصون بقريش الدوائر^(٢) ،
ويتحدثون إلى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم إلى بعض ، إذا
خلا بعضهم إلى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه .
وبأن الخير كل الخير في أن ينحازوا إليهم . فالضعف إلى الضعف
قوة . ومن يدري ! لعل الله أن ينتصف لهم ولأمثالهم بمحمد وأصحابه
من أولئك البغاة الظالمين . وأما المسلمون الذين صُرف عنهم العذاب
ونجيت عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفي نفوسهم ألمٌ وأملٌ ، وفي
قلوبهم حزنٌ وثقةٌ ، قد اطمأنوا إلى أن العاقبة لهم ، واستيقنوا بأن
الله منجز وعده ، ولكنهم على ذلك يرحمون إخوانهم ، وربما تمنوا
لو كانوا مكانهم فاحتملوا عنهم بعض ما يحتملون من الأذى .
وربما كان أصدق وصف لمكة حين أمسى المساء من ذلك
اليوم أن أكثر أهلها كانوا حائرين ، يرون الفتنة ولا يدرون أيعرفونها
ينكرونها ! لأنهم لا يعرفون أخيراً هي أم شر ! وأن أقل أهلها

(١) الرهط : الجماعة دون العشرة .

(٢) يتربص به الدوائر : ينتظر نزول الدوامي .

كانوا قد صدّقوا الله ما عاهدوا عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا أن العقابة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن أهل مكة لرأوا حين تقدم الليل من ذلك اليوم أن من حول مكة أعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخفهم الفرح واستهواهم الطرب ، ورأوا أصحاب محمد يعذبون أشد العذاب وأقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا أن فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستمكن لهم في قلوب قريش .

وأصبح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتحدثوا إليه من أمر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدث إليهم من أمرها بما لم يعلموا ، لا لأنه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصَبّ على المستضعفين من أصحابه ، بل لأن أمر الفتنة كله قد أوحى إليه .

وخرج النبي وأصحابه ففترقوا في أحياء مكة يسعى بعضهم هنا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلا من ربهم ، ويريدون في أكبر الظن مُواساة هؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم ويعذبون في الله . ويمشى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بطحاء مكة وقد وضع يده في يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يَمَاشيان حتى يبلغا آل ياسر ، وقد سطحو على الأرض مُوثقين ، ووُضعت على صدورهم الصخور الثقيل ، وجعل المشركون يمسونهم بالنار حيناً بعد حين ، وربما وخزوهم بالخناجر والحراب ، وثلاثهم سكوت لا ينطقون حرفاً ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيظ ؛ لأنهم

لا يبلغون منهم شيئاً. وقد أنكروا صمتهم الذي اتصل منذ أخذ في تعذيبهم مع الضحى ، حتى جعلوا يشتطون عليهم في البأس^(١) ليستخرجوا منهم أنة أو شكاة . ولكنهم ماضون في الصمت ، قد ثبت الله قلوبهم ، وصرف عن نفوسهم الجزع والتهلّع . فإذا مرّ النبي وصاحبه بهؤلاء الرهط المعذبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذلك ، سمعوا صوت ياسر لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبي فيقول : الدهر هكذا يا رسول الله . قال رسول الله : أبشروا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سمية لأول مرة من يومهم ذلك ، يسمعون صوت سمية لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبي فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق . وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذلك ، يسمعون لا يتجه إلى أبويه ، ولا يتجه إلى النبي وصاحبه ، وإنما يتجه إليهم هم فيقول : عذبونا يا أعداء الله ما شئتم ؛ فإن موعدنا الجنة وأنوفكم راغمة. هنالك يخرج المشركون عن أطوارهم^(٢) وَيَصْبُونَ على أولئك الرهط من العذاب ما ليس إلى وصفه سبيل .

ويمضى أبو بكر في بعض بطحاء مكة فيرى بلالا وقد عذب حتى ملت قريش تعذيبه . عذبوه بالنار والماء ، وعذبوه بالحديد

(١) يشتطون عليهم في البأس : يبالغون في قسوتهم .

(٢) خرج عن طوره : جاوز حده وقدره .

والسياط ، طرحوه على الأرض في الرمضاء^(١) ، وأثقلوه بالصخر ، يريدونه على أن يذكر آلهتهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحد ، أحد . يقول له أمية بن خلف : اذكر آلهتنا بخير يا بلال يُرفعُ عنك العذاب ؛ فيجيب : إن لسانی لا يطاوعنی . ثم يمضی فی ذكره قائلاً : أحد ، أحد . فيملّ أمية بن خلف وأصحابه فيضعون عنه أثقاله ثم يقيمونه ، ثم يضعون الحبال : حبالاً في إحدى ذراعيه وحبالاً في ذراعه الأخرى ، وحبالاً في إحدى ساقيه وحبالاً في ساقه الأخرى ، ثم يدعون الصبية ويلقون إليهم الحبال ، ويأمرونهم أن يَعدُوا ببلال حتى يجهدوا أنفسهم ويجهدوه . ويفعل الصبية ما أمروا ، فيعدون به إلى اليمين ، ويعدون به إلى شمال ، ويعدون به إلى أمام ، ويعدون به إلى وراء ، وهم يتصايحون ويتصاحكون ، وأمّية بن خلف وأصحابه ينظرون ويتعابثون ، وبلال لا يحفل بشيء من ذلك ، وإنما هو يتبع العادين به حيث يعدون ، لا يقاوم ولا يتمنع ولا ينفك لسانه عما أخذ فيه من ذكر : أحد ، أحد ، أحد ، أحد ، وقد بلغ الجهد من الصبية حتى جعلوا يلهثون ، ثم تراخت أيديهم وألقوا بحبالهم إلى الأرض . وظلّ بلال قائماً ماضياً في ذكره : أحد ، أحد . حتى يبلغ الغيظ من أمية وأصحابه ، فيدفع بعضهم في صدر بلال حتى يُلقيه على الأرض إلى ظهره .

(١) الرمضاء : الأرض الحامية من حرارة الشمس الشديدة .

فيسقط ويُسمعُ لسقوطه صوتٌ مُرَوِّعٌ ، ولكن ذكره متصل :
 أحد ، أحد . ويهمُّ أمية أن يبطش به ليسكت هذا الصوت
 ويقطع هذا الذكر ، ولكن أبا بكر يعرض له قائلا : وَيُحْكِمُ !
 فيم تعذبون هذا الرجل ؟ قال أمية : وما أنت وذاك يا ابن أبي قحافة ؟
 عبدٌ لنا تصنعُ به ما نشاء . قال أبو بكر : هو عبد الله قبل أن
 يكون عبدك يا أمية . إنك إن تأت على نفسه تأثمُّ وتُضَيِّعُ مالكَ ،
 فهل لك في شيءٍ خير من ذلك ؟ قال أمية : وما ذاك ؟ قال
 أبو بكر : أشترى منك هذا الرجل ، واحتكم في ثمنه . قال أمية وقد
 ضجر ببلال وتأديبه وتعذيبه : قد فعلتُ ، فأدِّ إلى ثمنه سبع أواق .
 قال أبو بكر : فخلَّ سبيله وَرُحْ مَعِيَ إلى حيث أودى إليك
 مالك . قال أمية : أدِّ إلى مالي أخلَّ عنه . قال أبو بكر :
 وَيَحْكُ يا أمية ! متى عهدتني ألتوى عليك بالدين ؟ ! قال
 أمية وقد استحيا : صدقتُ ، أخذُ غلامك وأرسلُ إلى ثمنه متى
 شئت . قال أبو بكر : إنما هي روحتي إلى أهلي ثم يؤدى مالك
 إليك .

وأخذ أبو بكر بلالاً من يده فانطلق به إلى داره ، وهناك
 رفق به وتخفَّفَ عنه بعض ما وجد من الضر ، وأرسل إلى أمية ماله .
 وتلبَّسَتْ في داره يرفقُ ببلال ويتحدثُ إليه ، ويقرأ عليه من آيات
 الذكر ، حتى إذا عاد رسوله وعرف أبو بكر أن أمية قد قبض
 ماله التفت إلى بلال وابتمس له وقال : انطلق بلالُ فأنت حرٌّ .

وأُمسى أبو بكر فأتى رسول الله وأنبأه بما رأى من فتنه بلال ،
وبأنه لم يستطع أن يستنقذه حتى اشتراه . قال النبي صلى الله عليه
وسلم : الشركة يا أبا بكر . قال أبو بكر فلإني قد أعتقته يا رسول
الله !

ومرّ قومٌ آخرون من أصحاب النبي بحى آخر من أحياء قريش
فيرون ، ويا هول ما يرون ! ناراً عظيمة قد أجمجت ، ويرون رجلاً
قد شدّ وثاقه^(١) ، ويرون قوماً يحملونه ويذنونه من النار حتى توشك
أن تُحيط به ، ثم يختطفونه اختطافاً فيبعدون به عن النار ، ثم
يقيمونه أمامهم مشدوداً مقيداً ، ثم يتقدم أحدهم فيدفع برجله
في صدره دفعة تُسقطه إلى ظهره وهم يتصاحكون ، ثم يعودون
فيفعلون به مثل فعلهم الأول . يقول له قائلهم : اذكر آهتنا بنجر
وقع^(٢) في محمد ودينه أو تميتنا هذه النار وهذه الأرض ! فلا
يسمعون منه إلا : أشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق .
وما يزالون يقدّمونه إلى النار ويؤخرونها عنها ، ويدفعونه إلى الأرض
ثم يردونه قائماً حتى يُغشى عليه . هنالك يقول بعضهم لبعض :
أبقوا عليه يا معشر قريش ، لا تأتوا على نفسه ، فيسألكم عنه حلفاءه
من زُهرة .

ويعود أصحاب النبي فينبئون اخوانهم بما رأوا من أمر خباب

(١) الوثاق : ما يشد به من قيد وحبل .

(٢) وقع في محمد : سبه .

ابن الأرت . وتمضى أمور قريش والمستضعفين من المسلمين على هذا النحو الأيام ثم الأشهر ثم السنين ، لا تبلغ قريش من هؤلاء المستضعفين شيئاً في دينهم ، إلا أن تكون كلمة الله قد حققت على بعضهم فيفتن عن دينه ويكفر بعد إسلام ، أو أن يكون الله قد آثر بعضهم بالحسنى فيختاره لجواره ويجعل له عنده مقاماً محموداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف النهار ، زعم لها أبو جهل أنه بالغ من ياسر وأهله ما يريد ؛ فقد عذبهم حتى أشفوا على الموت ، ولن يتركهم حتى يذكروا آلهة قريش بخير ويقعوا^(١) في محمد بما يكره . قال عتبة بن ربيعة : هيات أبا الحكم ؛ إن ياسراً رجل "جلد"^(٢) ، وإنه ما علمت ليؤثر الموت على أن يبلغك ما ترضى . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عتبة بن ربيعة : هيات يا أبا الحكم ! إنما هي أمانى ، وما أرى إلا أنك قد أزمعت أن تأتي على نفس هذا الشيخ . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عتبة : فاك عشرون من الإبل . قال شيبه بن ربيعة : ولك منى مثلها . قال أبو جهل : إن مالكما عليكما لهين . قال عتبة :

(١) يقعوا في محمد : يسبوه ويعيبوه ويفتابوه .

(٢) جلد : شديد قوى ، صبور .

فإن أتيتَ على نفس ياسر . . قال شيبه : دون أن تبلغ منه ما تريد
 وتريد ؟ قال أبو جهل : فاحتكما إذن . قال عتبة : لن نحتكم
 ولن نرزأك^(١) في مالك شيئاً ، وحسبنا أن تظهر من نفسك على عنادها .
 وأقبل الذين استخفهم هذه المأطرة فشهدوا عذاب ياسر وسمية
 وعمار .

ولم تر قريش من العذاب في مكة مثل ما رأت ذلك اليوم ،
 ولكنها على ذلك لم تظفر بشيء مما أمّلت . أقبل أبو جهل ومعه
 أصحابه ، فرأى الناس أنطاعاً من آدم^(٢) يسع كل نطع منها
 رجلاً وقد ملئت ماء ، ورأوا ناراً موجهة ومكاوي قد أحمى عليها ،
 ورأوا تلك الأسرة قد شدت وثاق كل منها وألتي ثلاثهم في جانب
 من الطريق كما يُلقي المتاع غير ذي الخطر . فلما بلغ أبو جهل
 وأصحابه مكان العذاب أمر غلمانهم فوضعوا بين يديه ياسراً وسمية وعماراً ،
 وألسنتهم لا تفر عن ذكر الله . فألهب أجسامهم بالسياط ، ثم
 أذاقها مس النار ، ثم صب عليها قرب الماء ، ثم عاد فيهم
 سيرته تلك مرة ومرة ، ثم أمر فغطوا في الأنطاع التي ملئت ماء
 حتى انقطعت أنفاسهم أو كادت ، ثم ردهم إلى الهواء ، وانتظر
 بهم حتى أفاقوا ، وتسمع لما ينطقون به بعد أن تاب إليهم شيء .

(١) لن نرزأك في مالك : لن نأخذ منه شيئاً ينقصه .

(٢) الأنطاع : جمع نطع وهو بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب
 أو يقطع الرأس . والأدم : الجلد . والمقصود هنا قرب الماء .

من قوة ، فإذا هم يذكرون الله وَيُشْنُونَ عَلَى مُحَمَّد . قال أبو جهل
 لسمية وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتذكرُنْ أهتنا بخير ولتذكرنْ
 محمداً بسوء أو تَموتنْ . تعلمي أنك لن تَرِي مساء هذا اليوم إلا
 أن تكفري بمحمد وربه . قالت سمية بصوت هادئ متقطع قليلاً :
 بؤساً لك ولآهتك ! وهل شيء أحبّ إلى من الموت الذي يريحني
 من النظر إلى وجهك هذا القبيح ! هنالك تضاحك عتبه وشيبة بن
 ربيعة ، وأخرج الخنق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب في بطن
 سمية برجله وهي تقول له في صوتها الهادئ المتقطع : بؤساً لك
 ولآهتك ! وَيُسْجَنُ جنون أبي جهل ، فيطعن سمية بحربة كانت
 في يده فتشقق شهقة خفيفة ثم تكون أول شهيد في الإسلام .

يقول ياسر : قتلها يا عدو الله ! بؤساً لك ولآهتك ! ويقول
 عمار : قتلها يا عدو الله بؤساً لك ولآهتك ! ليمتلئ قلبك غيظاً
 وحنقاً ! فإن رسول الله قد ضرب لها موعداً في الجنة . قال ياسر :
 أشهد أن وعد الله حق . ولكن أبا جهل لم يمهل ، وإنما يضرب في
 بطنه برجله فيشقق ياسر شهقة ثم يُصبح ثاني شهيد في الإسلام .
 قال عتبه وشيبة بن ربيعة : ألم تُحكمتنا إن لم تبلغ من ياسر
 وامراته شيئاً ؟ فسكت أبو جهل ، وقال الملاء من قريش : بلى ! نحن
 على ذلك شهداء . قال عتبه : فينبغي أن تطلق هذا الرجل وأن
 تخلي بينه وبين الحرية ليوارى أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذاك إلى أهله مغيظاً مُحنقاً منكسر

النفس ، لا يدري أغاظه أن أفلت منه هذان الشهيدان دون أن يبلغ منهما ما أحب ، أم غاظه أن صبرهما وثباتهما وإقدامهما على الموت في غير جزع ولا هلع ولا اضطراب إنما هو انتصار لمحمد ودينه الحديد على قريش ودينها القديم ، فأصحاب محمد يموتون في سبيله وفي سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها وأحلافها يسعون إلى محمد فيؤمنون له ، يستخفي بذلك أكثرهم ويعلم ذلك أقلهم ، ولكنهم يسعون إليه ويؤمنون له على كل حال ، وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقيق الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدينون لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذوا يتمردون عليهم ويشورون بهم وينكرون سيادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلك أحياناً ويُخفون ذلك عليهم أحياناً أخرى ، فإذا أخذت منهم قريش هذا الحرّ أو ذلك الرقيق لم يهابا ولم يرهبها ولم يُدعنا ولم يستكينا ، وإنما استقبلا العذاب والفتنة وقلوبهما راضية ونفوسهما مطمئنة وعلى ثغريهما ابتسامات تُحفظ وتملأ النفوس حنقاً^(١) . أغاظ أبا جهل هذا كله ، أم غاظه أن محمداً يسمع ويرى ويعلم من أبناء الفتنة والعذاب ما تعلمه قريش كلها ، فلا يهاب ولا يرهب ولا يترك شيئاً مما هو فيه من نشر دينه الحديد والدعوة إليه ، ثم هو لا يكتبني بذلك وإنما يخرج مع بعض أصحابه فيواسي من يعذبون من أتباعه بما يقول له من هذا الكلام الذي يلتهمونونه التهاماً ، والذي يزيدهم

(١) تحفظ : تغضب وتغيظ . الحنق : شدة الاغتيال .

على الفتنة والحنة صبراً وتبتيماً . وأى سخر من قريش أشدّ من هذا السخر ! وأى استفزاز لقريش أشدّ من هذا الاستفزاز ! وأى ازدراء لسلطانها أشدّ من هذا الازدراء ! وأى استهزاء بالملاّ من أشرفها أشدّ من هذا الاستهزاء ! وما عسى أن تقول العرب في أقصى الأرض وأدناها حين تعلم أن في جنب قريش شوكة أعيت سادتها وقادتها وذوى أحلامها ، فلم يستطيعوا لها انتزاعاً ، وإنما ثبتت لكيدهم ومكرهم ، ثم جعلت تُثبت من حولها شوكة صغاراً ، إن لم تكن مثلها قوة وحدة وأيداً فهي تنشر الأذى وتُشيع الألم ، وتوشك أن تجعل جسم قريش كله عليلاً لا أمل له في براء أو شفاء ؟

أغاظ هذا كله أبا جهل ، أم غاظه أن الملاّ من قريش رأوا أن شدته لم تغن عنهم ولا عن آلتهم شيئاً ، وإنما انتهت إلى القتل الذى لا تحبه قريش ، والذى لا يزيد محمداً وأصحابه إلا استسماكاً بدينهم وصبراً فيه ؟ أم غاظه أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة قد ظفروا به وظهروا عليه وشمتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق أن يستأثرا بسمع قريش وقلبها وحبا وقيادها ؟ أم غاظ أبا جهل كل هذا مجتمعاً ؟ لست أدري ، ولكنى أعلم أنه راح إلى أهله مغيضاً محنقاً يظهر الغضب ويحقى انكسار النفس . وقد ساء لذلك خلقه ، فلم يستطع أحد من أهله أن يقول

له شيئاً أو يسمع منه شيئاً . لم يجلس إلى طعام ولم يسمع لحديث ، وإنما خلا إلى نفسه فأنفق ليلة نائرة حزينة كئيباً لم يذق فيها النوم إلا غراراً^(١) .

كذلك راح أبو جهل إلى داره وأنفق ليلته فيها . فأما عمار فقد حمل إلى داره ، وحمل معه أبواه : حملهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نَسُوا أو تَنَاسَوْا ما بينهم من خصومة ، وذكروا أن بينهم مكروباً يجب أن يُواسَى ، وميتين يجب أن يُوارَيَا في التراب . وقد نهضوا بهذا كله متعاونين كأحسن ما يكون التعاون ؛ فرفقوا بعمار ، ولم يكن في حاجة إلى الرفق ، وأعانوه على دفن أبويه وكان إلى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد أن وارى أبويه إلى داره وقد تفرَّق عنه المشركون والتأمت حوله جماعة من المسلمين . وكان عمار يجحد في جسمه ألم العذاب ، ويجحد في قلبه حلاوة الإيمان ، ويجحد في نفسه لذع الحزن على أبويه . يقول له عثمان بن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك إلى نعيم الله ورضوانه ؟ ألم تسمع نبي الله وهو يضرب لكم موعداً في الجنة مَرَّةً ، ويدعوكم إلى الصبر مرة أخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ؟ قال عمار صدقتَ أبا عمرو ، ما ينبغي أن أحزن عليهما ، وإنما ينبغي أن أستبشر لهما وقد سبقا إلى الجنة ،

(١) غراراً : قليلاً .

وَعَدَهُمَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ وَوَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ . قَالَ عُمَانُ : فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ وَعَدَكَ بِمَا وَعَدَهُمَا بِهِ ! قَالَ عِمَارٌ : هِيَاتِ أَبَا عَمْرٍو ! لَوْ مَتَّ مَعَهُمَا لَكُنْتَ خَلِيقًا أَنْ أَرْضَى ، وَلَكِنَّهُمَا ذَهَبَا وَبَقِيَتْ ، وَفِي الْحَيَاةِ فِتْنَةٌ وَفِي النَّفْسِ ضَعْفٌ . وَإِنَّهُ لِيَحْزِنُنِي أَنْ فَاتَنِي بِهِمَا الْمَوْتُ فَأَصْبَحْتُ مَعْرُضًا لِمَا يَتَعَرَّضُ النَّاسُ لَهُ مِنَ الْإِثْمِ الَّذِي يُجْبِطُ الْعَمَلَ ^(١) ، وَمِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تَمْحُو الْحَسَنَاتِ . قَالَ عُمَانُ : مَا يَنْبَغِي أَنْ تَبْأَسَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَقْنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ . وَإِنَّكَ مَعْرُضٌ لِلْإِثْمِ كَمَا أَنْتَ مَعْرُضٌ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَإِنَّكَ مَعْرُضٌ لِلْسَّيِّئَاتِ كَمَا أَنْتَ مَعْرُضٌ لِلْحَسَنَاتِ . وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْرَهُ الْحَيَاةَ وَفِيهَا رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ عِمَارٌ : أَمَا هَذَا فَتَعْمٌ . ثُمَّ نَهَضَ كَأَنَّهُ لَا يَجِدُ أَلْمًا وَلَا سَقَمًا وَلَا عَنَاءً ، وَكَأَنَّمَا رُدَّتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ كَأَقْوَى مَا تَكُونُ قُوَّةُ الرِّجَالِ . نَهَضَ وَهُوَ يَقُولُ لِعُمَانِ وَأَصْحَابِهِ : وَيُنْحَكِمُ ! مَا يَجْبِسُنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ! وَمَضَوْا إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ فَجَلَسُوا مَعَ غَيْرِهِمْ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى النَّبِيِّ يَسْمَعُونَ لَهُ وَهُوَ يَعْظُمُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَتْلُو عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ . قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِعَتْبَةَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَأَخِيهِ شَيْبَةَ : أَمَا إِنَّكُمَا قَدْ اسْتَنْقَذْتُمَا حُشَّاشَةَ عِمَارٍ مِنَ الْمَوْتِ ! وَلَوْ قَدْ خَلَيْتُمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَوُورَى فِي التَّرَابِ ثَلَاثَةٌ لَا إِثْنَانِ . قَالَ عَتْبَةُ : فَقَدْ خَفَفْنَا عَنْكَ الْوِزْرَ أَبَا الْحَكَمِ . قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَقَدْ ابْتَسَمَ ثَغْرُهُ عَنْ نِيَّةٍ مَنكَرَةٍ وَرَأَى بَشْعًا : إِنِّي لَا أَحِبُّ

(١) جبط عمله : فسد وذهب سدى .

لعدوى أن يموت ! لأن ذلك يُريجه ويكفّ عنه بأسى ويردّ على قلبي ما فيه من الغل^(١). وإنما أحبّ له أن يحيا لأذيقه البأس مجدّداً ، ولأجرعه عُصَصَ العذاب شيئاً بعد شيء . ولا واللوات والعزى لا تعرضان ببني وبين عمار منذ اليوم إلا أن تريدا إثارة الشر بين حيكما وبين مخزوم كلها . فقد كان ياسر لنا حليفاً ، وكانت سمية لنا أمة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبه . فإن عمك أبا حذيفة قد أعتق عماراً وأخويه . قال أبو جهل : فإن لنا ولاءهم على كل حال . قال عتبة : هو ذلك . وأضمر أبو جهل في نفسه ما أضمر ، وادّخّر الله لعمار من الكرامة ما ادّخّر ؛ فقد اتصلت فتنة عمار ما أقام بمكة ، وافتنّ أبو جهل في هذه الفتنة حتى جعلها أحاديث . وأول ما قدّر من ذلك أن يحفظ على عمار حياته وحرّيته فلا يأتي على نفسه ولا يُلقيه في غيابات السجن ، وإنما يجعله لمحمد وأصحابه نكالا : يفتنه كلما أحسّ الحاجة إلى أن يفتنه ، ويعذبه كلما أحسّ الشوق إلى أن يشهد مشهد العذاب . وكأنه حالف الشيطان على أن يوفى عماراً من العذاب ما لم يستطع أن يصبّ على أبويه ، وأن يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ، فيضطره إلى أن يذكر آلمته بخير وأن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم . وأعانه الشيطان على ذلك كله ، وأعانه عليه قوم آخرون من سفهاء قريش . فترك عماراً آمناً معافى في نفسه وبدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض

(١) الغل : الحقد والنفس .

له بسوء ، حتى استراح عمار من محنته وظن أنه قد أمنَ الفتنة . فكان يغدو على دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيسمع من النبي ويتحدث إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخذ فيها ما لم يتخذه مسلم قبله في داره : اتخذ فيها مسجداً يعبد الله فيه أكثر الليل ، حتى أنزل الله في ذلك قرآناً : « أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَامِئاً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » فيما تحدث به ابن عباس .

ولكن أصحاب النبي يجتمعون ذات يوم في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، حتى إذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه . فإذا ذكروا ذلك أنبأهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن عماراً يُعذب في الله . ثم يمر النبي بعد أن يتقدم النهار بمكان في بطحاء مكة فيرى أبا جهل وقد عاد في عمار سيرته الأولى : نارٌ مؤججة . وماء مجتمع في نطع من الأدم ، وعمار قد ألقى بينهما ، وجعل السفهاء من قريش ينوشونه بالرماح ويحرقونه بالنار ، وعمار صابر صامت يذكر الله في قلبه ويكف لسانه عن القول . فإذا رأى النبي ذلك قال : يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم . وقد سلط أبو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً أن يأتي على نفسه . ولكن الله يقول لعباده : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقد دعاه في عمار أحب

عباده إليه وأرضاهم عنده . والله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب .

وقد احتمل عمار في ذلك اليوم من العذاب ما يُطبقه الرجال وما لا يطبقونه ، حتى إذا جنحت الشمس لمغربها كفت عنه العذاب ورُدَّ إلى داره . وأمهله أبو جهل بعد ذلك أياماً طويلاً حتى ظن عمار أنه لن يُفتن مرة أخرى . ولكن أبا جهل لم يُمهله إلا ليشتم عليه في الفتنة ويُضاعف له العذاب . ويراها النبي ذات يوم وقد بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منهما قط ، وعيناه تهلآن بدموع غزار ، فيدنو النبي منه رقيقاً به ، فيكفكف دمه وي مسح عينيه ويقول : ويحك ابن سمية ! أخذك الكفار فغطوك في الماء حتى قلت كذا وكذا ، فإن عادوا فعد ! ولكنهم لم يعودوا من فورهم ، وإنما انتظروا بعمار حتى أطمعوه في العافية ، ثم أخذوه فعذبوه وفتنوه ، ثم تركوه . وأقبل عمار على النبي خزيان أسفاً تنهل دموعه غزاراً على وجه مُرَبَّدٍ كئيب . فلما رآه النبي قال : ما وراءك ؟ قال عمار وهو ينتحب : شر يا رسول الله ، والله ما تركوني حتى ذكرت آلهتهم بخير وذكركت بما تكره ويحبون . قال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال عمار : أجده مطمئناً بالإيمان . قال رسول الله : فإن عادوا فعد . وأنزل الله في ذلك قرآناً : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التي كانت تتلاحق طوراً وتنتقطع طوراً آخر إلا حين أذن الله للمسلمين في الهجرة إلى أرض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فعاش مع رسول الله آمناً سالماً موفوراً .

١٥

استوثق رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حبيبي يثرب : الأوس والخزرج ، وعاهدهم أن يؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بغي عليه أو أراد به سوء حتى يُبلغ رسالات ربه . وبايعه على هذا العهد نُقباء^(١) هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشر به من أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالا ، وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله . وكانوا في أثناء

(١) نقباء : جمع نقيب وهو عريف القوم وسيدهم .

ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون
 فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالم^١ بن أبي حذيفة ،
 فيقدمونه ليؤتمهم^(١) في الصلاة ، وفيهم أعلام من المهاجرين ،
 منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ،
 وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون
 والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين
 والأنصار يقدمون سالمًا ليؤتمهم في الصلاة . فيكبرون من أمر
 سالم هذا بادئ الرأي ، ثم لا يلبثون أن يذكروه ويعرفوه . يقول
 بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلّى بهذه الناجمة
 من أصحاب محمد من هاجر منهم إلى المدينة ومن كان من أهلها ؟
 إنه سالم . ألا تذكرون سالمًا ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه ،
 ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على
 العرب واليهود صبيًا حديثًا لا يحسن العربية ولا يفهمها . وما هي
 إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى
 يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب
 واليهود جميعاً ، واشترته ثبيته بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفًا عليه .
 ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سلام بن حبير لرأى من صبيه ذلك
 عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذه الناجمة من

(١) يؤتمهم : يتقدمهم ويكون لهم إماماً .

أصحاب محمد يؤمّتهم فارسي قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردّ بعضهم على بعض رَجَعَ هذا الحديث فيقول : إن هؤلاء الناس لشأناً . إنهم يُسودون العبيد ، ويُبلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنا لرحم قريشاً مما ألمّ بها ، وإنا لنعذر قريشاً مما فعلتُ بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنهم قريش . ولنفيهاهم عن أرضنا كما نفّهم قريش . ولكن هل إلى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يؤمّ الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفرأ غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم . ثم يتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدّت عليهم الحرية بعد أن نشئوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنّصفّة والمساواة . ثم يتحدّثون في ذلك إلى المسلمين من قومهم . فيقول لهم هؤلاء : إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق . ولا بين الناس إلا بالتقوى ، وبما يقدمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام ، ثم يسرعون إليه ، ثم يحرصون على أن يؤمّهم سالم بن

أبي حذيفة ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يوماً الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله .

١٦

بلغ النبي وصاحبه أبو بكر قُباء ، ونزلا فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبي بهجرته إلى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته إليها ؛ فهي في عيد متصل . والأنصار يستبقون إلى برّ النبي وأصحابه من المهاجرين : يؤوونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطرفونهم بما يستطيعون أن يُطرفوهم به من الطيبات . وقد تقدّم النهار وصلّت الظهر ، وأقبل رجل من الأنصار فوضع بين يدي النبي رُطباً ، وجعل النبي وصاحبه أبو بكر وعمر يُصيبون من هذا الرطب . وإنهم لفي ذلك وإذا شخصٌ يُرفَعُ لهم ، ثم يدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم ، وإذا هو صهيبٌ سابقٌ الروم إلى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد أقبل صهيب مجهداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتي عليه الجوع ، وقد أصابه في طريقه رَمَدٌ ، فهو لا يكاد يرى إلا في مشقة أى مشقة ، وقد ألقى تحية إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرطب فانكب عليه وجعل يأكل منه أكلا

(١) يرفع لهم : يظهر من بعيد .

غير رفيق . يقول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم :
 ألا ترى يا رسول الله إلى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِدٌ ؟ فيقول
 له النبي : أتأكل الرطب وأنت رَمِدٌ ؟ فيقول صهيب وهو يعنى في
 الأكل : إنما آكله بشقّ عيني الذي لم يَرَمِدْ ؛ فيبتسم رسول الله
 ويضحك القوم . ويمضى صهيب في أكل غير رفيق ، حتى إذا
 أَرْضَى حاجته إلى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول : وعدتني
 الصحبة ثم تركتني . ثم يعاتب النبي فيقول : ووعدتني يا رسول الله
 الصحبة ثم تركتني ، والله ما خلصت إليك حتى اشتريت نفسي
 من قريش بمالي أجمع ، وما تركت مكة إلا بمدّ من دقيق عجنته
 بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت إليك . فيجيبه رسول الله : ربح
 البيع أبا يحيى ! ربح البيع ! وينزل الله هذه الآية الكريمة : « وَمِنَ
 النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »
 وقد أوجز صهيب قصة هذا البيع الرابع .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتكبروا ولا يَمْدُوا
 بإسلامهم ، وقد ثابت قريش بعض الشيء إلى نفسها بعد أن فاتها
 محمد وأبو بكر ، وجعلت تتبع من بقي من أصحاب محمد ، تحبسهم
 عن الهجرة ، وتمسكهم في العذاب ، وتفتنهم في دينهم ، وتصدّهم
 عن سبيل الله . وكان صهيب من الذين حبسهم قريش . يقول
 له أبو جهل وقد ورم أنفه وذهب به الغيظ كل مذهب : أتيتنا
 صُعْلوكاً حقيراً لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثريت عندنا وأصبحت

ذا مال ، ثم أنت تريد أن تفوتنا بمالك ونفسك إلى محمد وأصحابه ؛
 قال صُهيب : فإن خليتُ بينكم وبين مالي أتخلونَ بيني وبين
 ما أريد من الهجرة ؟ قالوا : نعم ، وقال أبو جهل : هيهات ! إن
 حاجتنا إلى مالك ليست أقل من حاجتنا إلى نفسك ، فلننسكنك
 في العذاب حتى نأخذ مالك ثم نأتي على نفسك أو تعود من ديننا
 إلى ما كنت عليه . قال صُهيب وفي صوته حزنٌ مُرٌّ : لو عاش
 عبد الله بن جدعان لما بلغت مني ما ترى . قال أبو جهل : سنأحقك
 بعبد الله بن جدعان فاشكنا إليه إن شئت . ألسم تزعمون أن الناس
 يحيونَ حياة ثانية بعد حياتهم هذه الأولى ! فالتقى عبد الله بن جدعان
 هناك إن شئت فاشكنا إليه . قال صُهيب : هيهات ! لن ألقاه ،
 قد وعدني رسول الله الجنة ، وهو في النار . قال أبو جهل وقد استأثر
 به الغيظ فسطا على صُهيب وضرب في وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون
 يا معشر تيم ! إن سيدكم عبد الله بن جدعان في النار ، وإن عبده
 هذا الرومي سيصير إلى الجنة ! ما رأيت كالיום حمقاً ولا خُرْقاً .
 ولبث صُهيب في حبسه أياماً لا يُرزقُ من الطعام إلا ما يعصمه
 من الموت . ولكن الإسلام كان في ذلك الوقت قد فشا في أحرار
 مكة ورفيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلاء ، وإذا صُهيب قد انسلَّ
 من محبسه وركب راحلته وأخذ طريقه إلى المدينة .
 وعلمت قريش بأن صُهيباً قد انسلَّ من محبسه ، وبأنه يوشك
 أن يفوتها ، فترسل في أثره الخيل ، ويُدرك القوم صُهيباً ولم يَمضِ



في طريقه إلا قليلا . فلما رآهم قد أقبلوا ، وعلم أنهم يوشكون أن يأخذوه وأن يردّوه إلى الفتنة والعذاب ، وقف لهم ، ونثر ما في كنانته من السهام ، وقال لهم في صوت الحازم المصمم : علمتم يا معشر قريش أني من أركم رجلا ، وإنكم والله لا تصلون إلىّ حتى أرميكم بكل ما بين يديّ من سهم ، ثم أضربكم بسيفي ما بقي منه شيء في يدي . فاختاروا بين الموت وبين ما لي أدلكم عليه فتأخذونه وتمخلون بيني وبين الطريق . ولم يَطلُ تفكير قريش ولا اثثارها ، وإنما آثروا العافية والسلامة والمال ، فقالوا : قد رضينا ، فدلنا على مالك . فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه . ومضى هو في طريقه حتى بلغ رسول الله وقد أدركه من الجهد والكد ومن الظمّ والجوع ما كاد يأتي عليه .

١٧

هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة ، كما هاجر إليها غيره من المهاجرين ، فنزل على مُعاذ بن جَبَل أو على سعد بن خيثمة ، يختلف رُواة السيرة في ذلك . وأقام عبد الله عند مُضيفه حتى خطّ رسول الله للناس دورهم في المدينة ، فخطّ لبني زُهْرَةَ في مؤخر المسجد ، وقال حتى منهم للنبي : تَكسِبُ عنا ابن أمّ عبد ، كأنهم كرهوا نزوله بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلم يبعثنى الله إذن ؟ إن الله لا يقدر قوماً لا يُعطي الضعيف منهم

حقه . ثم أنزله منزله بينهم كريماً .

ولم يكده عبد الله يستقر في المدينة حتى كان ألزم الناس للنبي وأشدّهم اتصالاً به في حياته العامة والخاصة ، بحجبه^(١) إذا دخل داره ، ويسعى بين يديه إذا خرج منها ، وكان أصحاب الحديث يقولون : إن ابن مسعود كان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه وطهوره . كان أثناء الإقامة يقوم على حُجْرته حاجباً ، لا يُخفى النبي عليه من سر إلا ما يؤمّر بإخفائه . فإذا همّ النبي أن يخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا ، حتى إذا جلس نزع نعليه فأدخلهما في ذراعه وأعطاه العصا ، فإذا أراد أن يقوم ألبسه نعليه وأخذ منه العصا فشى بها بين يديه حتى يبلغ الحجره فينحى ستارها ، ويدخل قبل النبي ، حتى إذا دخلها النبي نزع نعليه وخرج فقام أمام الستر حاجباً . فإذا خرج النبي في السفر فابن مسعود صاحب وساده إذا نام ، وصاحب طهوره كما أراد الوضوء . وكان النبي إذا أراد أن يغتسل في بعض سفره قام ابن مسعود من دونه يستره ، حتى لم يشك كثير من أصحاب النبي أن ابن مسعود كان من أهل بيته . فليس غريباً إذن أن يكون أحفظ الناس للقرآن وأكثرهم سماعاً عن النبي . ثم أصبح بعد النبي أكثر الناس تعليماً للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبي ، يتألم من ذلك ويخافه أشد الخوف . وكان النبي يُؤثره ويُكبره ويُدافع عنه ويُشيد به ، حتى قال ذات يوم : لو

(١) يحجبه : يقوم حاجباً على بابه .

كنت مُؤمّراً أحداً دون شورى المسلمين لأمرت ابن أمّ عبد .
 وأمره ذات يوم أن يصعد في شجرة فيجني له من ثمرها ، فلما جعل
 يصعد في الشجرة نظر أصحاب النبي إلى دقة ساقه وحموشتها^(١) فضحكوا .
 قال رسول الله : ممّ تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقه . قال رسول
 الله : لهي أثقل في الميزان من أحد . وظل صاحب سرّ النبي ووساده
 وظهوره ، حتى إذا اختار الله النبي لجواره وخرجت جيوش المسلمين
 غازية إلى الشام خرج فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه
 بعد أن تُوفّي خليله ، وأقام بمحصّ ما شاء الله أن يقيم ، حتى
 حدّره^(٢) عمر إلى الكوفة .

١٨

أقبل النذير فلا قلب قريش ذُعرأ حين أنبأها بأن أبا سفيان
 يستغيثها ويستنفرها^(٣) ويُعلمها أن محمداً قد خرج بأصحابه من المدينة
 يستعرض العير . ولم يتقدّم النهار حتى كانت قريش قد أنفرت وجعلت
 تجهز جهّازها للحرب . يتنافس أشرافها في ذلك أيّ تنافس ، ويستبقون^(٤)
 إليه أي استباق . واستيقن أبو جهل أن قد جاء الوقت الذي كان

(١) حمشت الساق : دقت .

(٢) حدّره : أنزله .

(٣) يستنفرها : يستجدها ويستنصرها .

(٤) يستبقون : يسرعون .

ينتظره منذ أعوام طوال ، وأن قريشاً لن تخرج لتحمي العيرَ فحسب ، وإنما تخرج لتسحق محمداً وأصحابه وتريح منهم مكة ويثرب جميعاً . وقد جاء النبأ بعد أن خرجت قريش بأن أبا سفيان قد ساحل بالعير^(١) حتى أحرزها^(٢) من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود إلى مكة فتتعم فيها بالسلم والعافية . ولكن قريشاً أبت أن تعود كما خرجت وزين لها الشيطان بلسان أبي جهل أن تمضي حتى تأتي بدرأ فتنزله بها منتصرة مظهرة للعرب أنها ما زالت قريشاً صاحبة العز والمجد والسؤدد. ثم تنحرف فتطعم وتشرب وتطرب وتشرك العرب في طعامها وشرابها وطربها وطوها ، ويعلم محمد وأصحابه أن كلمة هبل^(٣) ما زالت عالية ، وأن عزَّ قريش لا يُرام . وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من أشراف قريش ، وقد جعل إلى ابنه عبد الله ماله وحملانه^(٤) يسعى بها بين يديه . وكان سهيل قد فُتن في دينه حين عاد من هجرته إلى أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وحبسه وفتنه حتى استيقن أنه قد عاد إلى دين آبائه وآثر قريشاً على محمد . فلما خرج مع الملائ من قريش قدَّم ابنه بين يديه فعخوراً به معتمداً عليه . وتراءى الجمعان ببدر ، ونظرت قريش فإذا محمد في قلة من أصحابه ، فامتلات

(١) ساحل بالعير : ذهب بها إلى ساحل البحر .

(٢) أحرزها : صانها وحفظها .

(٣) هبل : صنم كان في الكعبة .

(٤) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .

عُجِباً وَتَبْهَأً . وَنَظَرَ النَّبِيَّ فَإِذَا قَرِيشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِقَضِيئِهَا وَقَضِيئِهَا (١) ، فَاسْتَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَاسْتَنْزَلَ نَصْرَهُ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ . وَتَدَانَى الْجَدْعَانِ .

ولكن قريشاً تنظر ذنبي عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتى من أقوى شبابها قوة وأنصرهم نصرة وأشدهم بأساً ، يخرج من صفها وينحاز إلى محمد . ويرى المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريش ، أنه قد عاد إلى دين آبائه . وتتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف أولئك وهؤلاء أنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، خدع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله في أمر عمار بن ياسر : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدره ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان . وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد ، وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجههما . فلما أحس الفتنة من أبيه أظهر له ولقريش ما أرضاهم ، وأخفى عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وما هو ذا

(١) أقبلوا بقضيتهم وقضيتهم . جميعهم .

يخرج من صفوف قومه وينحاز إلى صف المسلمين ، ثم يسعى حتى يبلغ النبي فيهدى إليه سلامه ويتلقى منه بركته . ثم يخرج إلى أصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قریش وفيهم أبوه . ويلقى أثناء الزحف أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة زوج أخته سهلة ، فإذا قص عليه قصته أثنى أبو حذيفة عليه وقال خيراً . ولم يزد على ذلك شيئاً . وقد تذاوى الجمعان ، حتى لم يبق إلى تداניהما سبيل إلا بسيف أو رمح . ولكن قریشاً تنظر فترى عجباً ، والمسلمون ينظرون فيرون عجباً : يرون فتي يصول في الميدان بين الصفيين يدعو عتبة بن ربيعة للمبارزة . ويخرج عتبة للفتى ، ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ، وقد ملأ الغيظ قلوب قریش وملأ الإعجاب قلوب المسلمين : رأى أولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعو أباه للمبارزة . ويبلغ هند بنت عتبة وزوج أبي سفيان أن أباهما وأخاها الوليد وعمها شيبة قُتلوا ، وأن أخاها أبا حذيفة قد دعا أباه للقتال ، فتقول في هذا كله فتكثر القول ، وتهجو أخاها أبا حذيفة بهذين البيتين :

الأحول الأثعل المشوم طائره^(١) أبو حذيفة شرّ الناس في الدين
أما شكرت أبا ربّاك من صغيرٍ حتى شببتَ شاباً غير محجون^(٢)
وشهد الواقعة فيمن شهدها من المهاجرين عبد الله بن مسعود ،
وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط

(١) الأثعل : من تراكبت أسنانه إحداهما على الأخرى . المشوم طائره : المنحوس الطلعة .

(٢) محجون : معوج .

سريع الحركة ، لا يكاد يُرى في مكان حتى يُرى في مكان غيره ، شأنه في قریش المحاربة كشأنه في قریش بمكة حين كانت تفتن المسلمين ، وهو يعدو هنا ويعدو هناك ، ويطير في الميدان من مكان إلى مكان . وإنه لفي بعض ذلك وإذا هو يرى ابني عفرأ قد صرعا أبا جهل وأثبتاه ^(١) ، فيسرع إليه ابن مسعود ويدركه وفيه رمقٌ يُتيح له أن يرى وأن يسمع وأن يعقل ، ويُتيح له أن يتكلم في بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول : ها قد أخزك الله يا عدو الله ! قال أبو جهل في صوته المتهاك المتقطع : ها أنت ذا يا راعي الغنم ! لقد ارتقيت مرتقى صعباً . قال ابن مسعود : لقد أخزك الله بما قدّمت إلى المسلمين من شر ، فذُقْ عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدُّ بأساً وأعظم تنكيلاً . ثم يحتز رأسه ، ثم يمضى خفيفاً مسرعاً ، فينبئ النبي بمقتل أبي جهل . قال النبي : الله الذي لا إله غيره ! قال ابن مسعود : الله الذي لا إله غيره ! فكبر النبي وكبّر من حوله من المسلمين . ووقف النبي بعد ساعة على صرعى قریش وقد ألقوا في القلب فقال : « يا أهل القلب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » . قال بعض أصحاب النبي : إنهم مرتى يا رسول الله ! قال : « إنهم ليسمعون كما تسمعون إلا أنهم لا ينطقون » .

(١) أثبتاه : جرحاه جراحة لا يتحرك منها ولا يقوم بعدها .

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان أول من أذن في الإسلام ، وقد جعل النبي الأذان إليه حين نُظِّمَت جماعة المسلمين . وليس من شك في أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان أندى صوتاً من بلال ، وربما كان بينهم كذلك من كان أفصح منه لغة وأنصح منه منطقاً ! ولكن الله يؤتي فضله من يشاء . وقد عرف رسول الله لبلال سببته إلى الإسلام وسببه إلى الأذان ، فجعله صاحب أذانه ما أقام في المدينة ، فإذا غاب عنها أذن مكانه أبو محذورة ، فإذا غاب أبو محذورة وبلال أذن مكانهما عمرو بن أم مكتوم . وكان بلال يتحرى الوقت بالأذان فلا يؤخره ، فإذا فرغ من أذانه أقبل حتى وقف على باب رسول الله ليؤذنه ، وقال : حَيَّ عَلَى الصَّلَاة . حَيَّ عَلَى الفَّلَاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنحى وقام ينظر . حتى إذا خرج رسول الله ورآه بلال أخذ في الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة^(١) بين يدي رسول الله في العيدين وفي الاستسقاء ، حتى إذا بلغ المصلتي ركز العنزة بين يدي رسول الله فصلتي إليها . وكان النبي يحب بلالاً أشد الحب ويكبر من شأنه ، ويريد

(١) العنزة هنا : ربح صغير فيه زج (حديدة في أسفله يركز بها) .

أن يكبر الناس من شأنه . جاءتته أسرة عربية تطلب إليه أن يزوج
 ابنتها من رجل عربي سمته ، فقال لهم النبي : فأين أنتم عن بلال ؟
 فانصرف القوم من يومهم ذاك ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من غد
 على النبي فطلبوا إليه ما طلبوا أمس . فقال لهم مثل ما قال أمس :
 أين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا
 من الغد فطلبوا إليه ما طلبوا إليه أمس وأول من أمس ، فقال لهم
 مثل ما قال في المرة الأولى وفي الثانية : أين أنتم عن بلال ؟ ثم زاد :
 أين أنتم عن رجل من أهل الجنة ؟ فزوجوه . وعرف الناس أن رسول
 لا يمايز بين المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح وما يقدمون
 بين أيديهم من الحسنات . وأكبر الناس بلالاً كما أكبره رسول الله ،
 حتى كان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا .
 يريد بلالاً . وكان هذا كله خليقاً أن يرضى بلالاً عن نفسه شيئاً ،
 ولكن بلالاً لم يرض عن نفسه قط ، وإنما كان صادق التواضع
 مستصغراً لنفسه مهما يفعل . أقبل مرة يريد الأذان ، فأحس
 شيئاً من رضا عن نفسه ، فغاضه ذلك وأنطقه بكلام كان يريد أن يكون
 شعراً فلم يستطع ، أصاب الوزن وأخطأ القافية :
 ما لبلال ثكلته أمه وابتل من نضح دم جبينه
 وكان الناس من المسلمين يأتون بلالاً فيتحدثون إليه ويذكرون
 ما آتاه الله من الفضل وما اختصه به من الكرامة ، فلا يزيد على
 أن يقول : إنما أنا حبشي وقد كنت بالأمس عبداً .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين ، وثابت قريش إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، وعفا رسول الله عن مسيئتها ، وقال لهم مقالة يوسف لإخوته : « لا تريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . وحطم الأصنام وَطَهَّرَ الكعبة وأخلصها لله عز وجل ، ثم قال لبلال : اصعدْ فأذنَ على ظهر الكعبة . وصعد بلال فأذن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وَصَفْوَان بن أمية قاعدان ؛ يقول الحارث بن هشام لنفسه في أعماق نفسه : كيف لو رأى أخى عمرو بن هشام بلالاً هذا قائماً على ظهر الكعبة ؟ ويقول وَصَفْوَان بن أمية لضميره في أعماق ضميره : كيف لو رأى أبي أمية بن خلف هذا العبد الذي طالما عذبه وأدبه قائماً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع الرجلان لاكتفى كلُّ منهما بالحديث إلى نفسه ، ولكنهما يريان الكعبة وقد زال عنها هُبل وزالت اللاتُ والعزى ومناة الثالثة الأخرى وقام على ظهرها حبشيُّ يعلن دين محمد إلى قوم طالما حاربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً أو كارهاً .

ينظر الرجلان إلى الكعبة وقد طُهرت من الأوثان ، وإلى هذا الحبشي القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس في أذن صاحبه : ألا ترى إلى هذا الحبشي ؟ قال ذلك في صوت تملؤه الحسرة . ويحجبه صاحبه في صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنْ يكرهه الله يُغيره . وبلال قائم على ظهر الكعبة يرفع صوته الندى قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأذن بلال في المدينة للمسلمين ، فاستجابت له قلوبهم محزونة .
وأغرقت جماعتهم في نحيب مرّ ارتجّ له المسجد حين قال بلال
وصوته يكاد يحتبس في حلقة « وأشهد أن محمداً رسول الله » . وذلك
أن النبي كان روحه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وكان جسمه
لم يُقبر بعد . فلما دفن صلى الله عليه وسلم وامتّ البيعة
للأبي بكر ، قام إليه بلال فقال : أيّ خليفة رسول الله ! إن كنت
قد اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت قد اشتريتنى لله فذرني
وعملي لله . قال أبو بكر : ما تشاء يا بلال ؟ قال بلال : إني سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن أفضل عمل العبد جهاده
في سبيل الله ، فخلّ بيني وبين الجهاد . وأراد أبو بكر أن يردّه
عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلال^(١) إلى الشام فرابط^(١) فيها غازياً
حتى توفّي في دمشق عام عشرين .

٢١

وأقبل عمار بن ياسر إلى المدينة مهاجراً فنزل على مُبَشَّر بن
عبد المنذر ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين
حذيفة بن اليمان . وأقام عمار عند مُضيفه مُبَشَّر حتى أقطعه
رسول الله موضع داره ، وحتى بناها ثم انتقل إليها . وكان عطف
النبي على عمار شديداً ووجه له قوياً عميقاً . وكان عمار يحس

(١) رابط الجيش : لازم تخوم العدو .

هذا الحب وذلك العطف ، فيدفعه هذا الإحساس إلى تحمس في الإسلام كان يمتاز به من أكثر المسلمين ، حتى كانت الأنظار تتجه إليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكر فيه ، وربما لهجت به بعض الألسنة أحياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويأخذها من الجهد في سبيل الله بأكثر مما كانت عامة المسلمين تأخذ به أنفسها . أخذ رسول الله في بناء مسجده واشترك المسلمون في هذا البناء ، يرون اشتراكهم فيه خيراً لأنفسهم وبراً بها ، ولم يكن رسول الله أقلهم جهداً ولا أيسرهم عناء في هذا البناء ، فكان يحمل معهم اللبن^(١) حتى يغير وجهه الكريم وحتى يكثر عليه التراب . وكان المسلمون يحملون اللبن لينة لينة إلا عماراً فكان يحمل لبنتين لبنتين ، وكان ينفق في ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين إعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لبناته وهو يتغنى : « نحن المسلمين نبتى المساجدا » . وربما رق قلب رسول الله لعمار فيقبل عليه ويرفق به ويتلطف له ويمسح عن وجهه وصدرة التراب ، حتى قال له ذات يوم وهو يمسح التراب عن وجهه : « وَيَحْكُ ابْنُ سُمَيَّةِ ؟ تَقْتَلِكِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ! » . ووقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ، فنقشت في ضمائرهم وملأت نفوسهم هيبه لعمار وإكباراً له . ولم يقل النبي هذه الكلمة لعمار مرة واحدة ، وإنما قالها له

(١) اللبن : الطوب النيء .

فما يظهر غير مرة : قالها له أثناء بناء المسجد ، وقالها له بعد سنين حين احتفر الخندق . وكان بلاء عمار في حفر الخندق مُضَاعَفًا كبلائه في بناء المسجد . وكان النبي يعمل مع أصحابه في حفر الخندق كأحد منهم يحمل التراب والحجارة ويتغنى وهم يردون عليه :

« لا همَّ إنَّ العيش عيش الآخرة ، فاغفرُ للأَنْصارِ والمهاجرة . »

وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار ففات ، فقال النبي : لم يمت عمار . ثم لقي عماراً فقال له : « وَيْحَكَ ابنَ سُمَيَّةَ ؛ تقتلك الفئة الباغية ! » وملأت هذه الكلمة قلب عمار يقيناً وثقة وحرصاً على أن يعمل صالحاً ما وسعه العمل ، وعلى أن يجتنب الفتنة ما وسعه اجتنابها . وكان يطيل الصمت ولا يتكلم إلا حين لا يكون من الكلام بُدٌّ ، وكان كثيراً ما يقطع صمته بهذه الكلمات : عائدٌ بالله من فتنة ! عائدٌ بالله من فتنة ! ثم يعود إلى صمته العميق .

وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم ، فكان بينه وبين عمار شيء من خصومة ، فأغلظ خالد لعمار في القول - وكأنه ذكر سُمَيَّةَ التي كانت أمة لعمه أبي حذيفة ، ويأسر الذي كان حليفاً لعمه أبي حذيفة . وكأنه ذكر عماراً بأنه عتيق عمه أبي حذيفة ، وكانت في خالد بقية من كبرياء مخزوم ، وكان فيه فضلٌ من صَلفٍ^(٢) قریش - فجاء عمار إلى النبي صلى الله

(١) لا هم : اللهم ، يا الله .

(٢) صلف : تكبر وتمدح وادعاء .

عليه وسلم يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فجعل يقول لعمار
وعمار ساكت والنبي مطرق . ثم رفع النبي رأسه وقال في صوته الوداع
العذب الذي ينفذ إلى القلوب : « من عادى عماراً فقد عاداني » .
فخرج عمار كأرضى ما يخرج الناس ، وخرج خالداً مهموماً مغتمساً
كثيب النفس . فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما
أسلف إليه من سوء .

٢١

عادت العرب إلى كفرها بعد وفاة النبي ، وجدّ أبو بكر
وجدّ معه الأنصار والمهاجرون في ردهم إلى الإسلام طائعين أو
كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبي بكر إلى اليمامة يقاتل
مسيلمة ويردّ بني حنيفة إلى الإسلام . والتقى المسلمون وأهل
الردة ، فكانت بينهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من المواقع
وكان في الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدماءً وأحدًا والمشاهد كلها
مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ،
وابنه قديماً ومولاه حديثاً سالم بن سالم ، وأخو امرأته عبد الله بن
سهيل بن عمرو . وقد انكشف المسلمون وكادت الدائرة تدور
عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء النفر قد ثبتوا في أماكنهم لا يريمون .
فأما سالم فجعل يصيح بالناس : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله !
ثم احتفر حفرة فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله
بن سهيل صنيعه فاستشهدوا جميعاً في أماكنهم .

وأما عمار فقد رآه الناس قائماً على صخرة وقد قطعت أذنه فهي
تتذبذب ، وهو يصيح بالمسلمين : إلى أيها المسلمون أنا عمار بن
ياسر ، أمن الجنة تفرون ! وما زال بهم يدعوهم وقد ثبت على صخرته
لا يزول حتى ثاب إليه المسلمون وأنزل الله عليهم نصره . ويبلغ
أبا بكر موت سالم ، فيدفع تراثه إلى صاحبة ولائه ثبיתה ، فترده
وتقول : سيبته لله عز وجل . فإذا ولى عمر الخلافة دفع تراث سالم
مرة أخرى إلى ثبיתה صاحبة ولائه ، فترده وتقول : سيبته لله عز وجل .
ويضعه عمر في بيت المال .

وأقبل أبو بكر في أثناء خلافته حاجاً . فلما دخل مكة جاءه
سهيل بن عمرو مسلماً ، فعزاه أبو بكر بابنه عبد الله الذي قتل
في الإمامة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغني أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : يشفع الشهيد لسبعين من أهله ! فأنا أرجو ألا
يبدأ ابني بأحد قبلي .

٢٢

لم يكد عمر ينهض بأمور المسلمين بعد صاحبه حتى مضى
في سياسة الفتح التي ابتدأها من قبله . لم يهن ولم يضعف ، ولم
يتح لأحد من الناس أن يهن أو يضعف ، وإنما رمى العالم القديم
المتحضر بثقل العرب ، فلم يثبت له العالم المتحضر إلا ريثماً تداعى
ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا يُنيم ، وإنما كان يقظاً دائماً ،
موقظاً دائماً . عاملاً دائماً ، دافعاً غيره إلى العمل . وقد فتح عمر
للذين أسلموا بأخرة من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب

الجهاد على مصاريعها ، وألقى في روعهم جميعاً أن من فاته ثواب الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يشهد معه بدرأً ولا أحدأً ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد ، فإن أمامه ملك الروم وفارس يستطيع أن يستدرك فيهما ما فاته من حسن البلاء . وأى بلاء أحسن من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكد يخرج من شبابه ، والفتى لم يكد ينضو عنه ثوب الصبا ، وسيلة إلى تحقيق وعد الله عز وجل وتصديق قوله : « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتها ، ولا عقبة إلا ذللتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء . ولم يكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم خاصة أقل اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلموا بأخرة . ولم يكن عمر يصدِّمهم عن ذلك أو يردُّهم عنه ، وإنما كان يُخلى بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا إليه سبيلاً ، إلا أولئك الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم في المدينة ولم يأذن لهم بالخروج ، خاف من عامتهم على الناس ، وخاف على خاصتهم من الفتنة ، وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد أبي عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجزئك .

أما المستضعفون من أصحاب النبي من قريش ومن غير قريش

فلم يحفّ عمر منهم ، ولم يحفّ عليهم فتنه ، فغلب بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتغوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلال وأبو ذرّ وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام في المدينة من أمسكه ضعف الجسم أو أمسكته سياسة عمر . وأقبل حجاب بن الأرتّ ذات يوم مسلماً على عمر ومستأذناً في أكبر الظن في اللحاق بجيش من جيوش العراق ، فيشّ له عمر ويستدنيه ويُجلسه على مُتكنه ويقول : ما على الأرض أحدٌ أحقّ منك بهذا المجلس إلا رجلاً واحداً . فيقول حجاب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : بلال . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر . قال حجاب : ما هو بأحقّ مني ، لقد كان له من قریش من يمنعه ويقوم دونه ، فأما أنا فلم يكن لي أحد ، ولقد رأيتهم ذات يوم أخذوني ثم أوقدوا لي ناراً فسلقوني فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدري ، فوالله ما اتقيت بردَ الأرض إلا بظهري . ثم يرفع رداءه ليري عمر ما بقي في ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر . وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شراً مروّعاً : يرون أن ظهره قد برص . لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بداراً وأحدأً والخندق والمشاهد كلها . ثم لم يكفه ذلك حتى أبى إلا أن يجاهد ، كأنه رأى أنه لم يلقَ في سبيل الله مع هذا كله ما ينبغي أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع الغازين ، وجاهد مع المجاهدين ، ورابط في الكوفة حتى أدركته الشيخوخة

واشتد عليه الداء ، وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى في بطنه سبع كيات ، وبرح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلاً مُرَوَّعاً قد ملك الخوف والحزن عليه أمره . يقول لعواده من أصحاب النبي : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهاً أن نتمتى الموت لتمنيتة . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتنهل دموعه على وجهه غزيراً .

فيعزيه عواده من أصحاب النبي يقولون له : أبشراً أبا عبد الله ؛ إخوانك فلان وفلان وفلان ، تقدم عليهم غداً . فيغرق في البكاء حتى ما يستطيع كلاماً ، ثم يثوب إليه شيء من هدوء فيقول في صوته الضعيف النحيب المتقطع : أما إنه ليس بي جزع ، ولكن ذكرتموني أقواماً ومبتمومى لإخواناً ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما همى ، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم . ثم تأخذه غشية تكف لسانه عن النطق حتى يُظن أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرد إليه شيء من حياة ، فينظر فإذا كفنه قد أحضر ، وإذا هو من قباطى ، فيبكي ويقول : لكن حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم كفن في بردة ، فإذا مدت على قدميه قلصت^(١) عن رأسه ، وإذا مدت على رأسه قلصت عن قدميه ، حتى جعل عليه إذخر^(٢) . ولقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن فى ناحية

(١) قلصت : ارتفعت .

(٢) الإذخر : الحشيش الأخضر ، وحشيش طيب الريح .

بَيْتِي فِي تَابُوتِي^(١) لِأَرْبَعِينَ أَلْفَ وَافٍ ، وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ
 قَدْ عَجَّلْتُ لَنَا طَيِّبَاتِنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا . يَقُولُ بَعْضُ أَوْلِيَاءِ الرَّهْطِ
 لِبَعْضِ حِينِ انْصَرَفُوا عَنْهُ : أَلَا تَرَوْنَ إِلَى خِجَابٍ عَلَى كَثْرَةِ مَا احْتَمَلِ
 وَعَلَى كَثْرَةِ مَا عَمِلَ يَخْشَى أَنْ يَلْقَى اللَّهَ فَقِيراً لَيْسَ لَهُ كَبِيرٌ حِظٌّ مِنْ
 الصَّالِحَاتِ ! فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : وَمَا يَرِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَ
 عُمَانَ بْنَ مِظْعُونَ بَعْدَ مَوْتِهِ : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ !
 إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَمَا أُدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ! » .

وَلَمْ يَمْنَعِ الْمَرَضُ الْمَوْجِعَ وَالْأَلْحَزْنَ اللَّادِعَ وَلَا الْخَوْفَ مِنْ لِقَاءِ
 اللَّهِ خِجَاباً مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّماً نَاصِحاً لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى فِي آخِرِ عَهْدِهِ
 بِالدُّنْيَا وَأَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْآخِرَةِ . كَانَ النَّاسُ يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ فِي جَبَابِيهِمْ
 قَرِيباً مِنْ دَوْرِهِمْ فَيَقُولُ خِجَابٌ لِابْنِهِ حِينِ أَحْسَنَ الْمَوْتَ : يَا بَنِيَّ
 إِذَا أَنَا مِتُّ فَادْفِنِي بِهَذَا الظَّهْرِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا صَاحِبُ
 مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْفِنُ بِظَهْرِ الْكُوفَةِ ،
 ثُمَّ دَفَنُوا مَوْتَاهُمْ خَارِجَ الْمَدِينَةِ .
 وَمَاتَ خِجَابٌ وَصَلَّى عَلَيْهِ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَدُفِنَ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ ؛
 فَدَفَنَ النَّاسُ مَوْتَاهُمْ حَوْلَ قَبْرِهِ .

٢٣

مَضَى صَهْبِيبٌ بَعْدَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ يَمِضِي عَلَيْهِ مِنْ سِيرَتِهِ
 فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ . وَكَثُرَ الْمَالُ عِنْدَهُ بَعْدَ الْفَتْوحِ ،

(١) التابوت : الصندوق .

فكثر عطاؤه وبخاؤه ، حتى تحدث بأمره الناس . وكان لا يستقبل ليله إلا جمع خلقاً من الناس كثيراً حول طعام كثير . فجعل الناس يذكرون كرم أبي يحيى وبخاء أبي يحيى وبرّ أبي يحيى . وسمع ذلك عمر فقال : من أبو يحيى هذا الذى يذكرون ؟ قالوا : صهيب . قال : لصهيب ابن " يكتسى به ؟ قال الناس : إنه يكنى أبا يحيى ، وإنه يُطعم الطعام الكثير ، كما كان أجواد العرب من قومه يفعلون . قال عمر : وإن صهيباً لمن العرب ؟ قالوا : بذلك يحدثنا . فسكت عمر ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان ذات يوم فى المسجد والناس من حوله كثير وفيهم صهيب ، دعاه إليه وقال له : مالك تُكنى أبا يحيى وليس لك ولد ، وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم ، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سرفٌ فى المال ؟ فقال صهيب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى أبا يحيى . وأما قولك فى النسب وادّعائى إلى العرب فإنى رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ، ولكن سبيت ، سبتنى الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلت أهلى وقومى وعرفت نسبى . وأما قولك فى الطعام وإسرائى فيه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن خياركم من أطعم الطعام ورد السلام »! فذلك الذى حملنى على أن أطعم الطعام . فسكت عنه عمر . وعاش صهيب ما عاش خير مثل للمسلم كما صوره رسول الله حين قال : « المسلمُ من سلمَ الناس من لسانه ويده » . ولم يكن يعطى الناس من نفسه إلا خيراً ، كان يجود عليهم بماله وعلمه

جميعاً ، لا يتحفظ في الجود بالمال ، ولا يتحفظ في الجود بالعلم ، إلا بوحدة ، كان شأنه فيها شأن الخيار^(١) من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : لم يكن يحب أن يتحدث عن النبي مخافة أن يخطئ الحديث . وكان يقول للناس : هلموا أحسدكم عن مغازينا ، فأما أن أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يطعن ذات صباح ، وينظم أمر الشورى حين أحس الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون صلاة المسلمين إلى صهيب ثلاثاً حتى يختار أهل الشورى للمسلمين إماماً .

وينظر المهاجرون والأنصار ، فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر . فإذا حضرت جنازة عمر قدموا صهيباً فصلى بهم عليه . فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى من تشاورهم ، لم ينكر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن نفرأ من شباب قريش جعلوا يتحدثون بذلك فيما بينهم ، ولم يكن شباب قريش يألفون عمر ولا يطمثون إلى سيرته ، لشدته على قريش ولشدته في الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض : ألم تروا إلى عمر يقدم هذا الرومي ليصلي بالمهاجرين والأنصار ، وقد كان صهيب عبداً لرجل من قريش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على أنه لم يزد على أن يجعل إليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم

(١) الخيار : الصالحين الكثيري الخير .

إماماً ! فقد كان خليقاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمرة المؤمنين .
قال آخر : وَيَحْك ! إنك لتسرف في الظن ، وإن بعض الظن
إثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى لعبد الله بن جدعان
من سبي العرب أو من سبي الروم ، قال صاحبه وهو يضحك
ضحكة ساخرة : ألم يبلغك أن عمر قال : لو كان أبو عبيدة
بن الجراح حياً لاستخلفته ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً
لاستخلفته . وهل كان سالم مولى أبي حذيفة إلا رقيقاً فارسياً من أهل
إصطخر ؟ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً
فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً رومياً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً :
ما رأيت كالיום رجوعاً إلى الجاهلية الأولى . ويلكم ! أمسلمون
أنتم صادقون في إسلامكم أم منافقون ؛ رحم الله عمر ! والله ما عرفناه
إلا برأ صادق النصح لله ورسوله وللمؤمنين . ألم تقرأوا قول الله عز
وجل : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ؟

وتفرق أولئك الفتية وقد ثاب بعضهم إلى الحق والهدى ؛ وأسر
بعضهم الآخر في نفسه أن السلطان عربي لا ينبغي لأحد - ولو
كان عمر - أن يصرفه عن العرب وعن قریش خاصة إلى الفرس
أو الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقوم كثير أمثالهم مصدر شر
عظيم للمسلمين .

أقام عبد الله بن مسعود بحمصَ بعد أن فتحت على المسلمين ما شاء الله أن يقيم ، مرابطاً في سبيل الله . ولكن المهاجرين والأنصار ممن أقام في المدينة ينظرون ذات يوم فإذا هو بين أظهرهم في المسجد ، فيستبقون إليه مسلمين عليه ، ويسألونه عن مقدّمه فيقول : ما أدرى ، وإنما دعاني أمير المؤمنين فقدمتُ . ثم يلقي عمر عبد الله بن مسعود فيخلو إليه ، ويخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما إلى عثمان بن حنيف ثم يُعلن إلى المسلمين في أعقاب صلاة من الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحرّبا إلى عمار بن ياسر ، وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى عبد الله بن مسعود ، وأنه قد جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن حنيف . فأما أصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم وفي ظاهر سيرتهم . وأما الذين أسلموا بأخرة من أشرف قريش فيسمعون ويُطيعون وينصرفون وفي نفوسهم شيء . يقول أحدهم لصاحبه : غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرة الكوفة لابن سُمَيّة ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أمّ عبد ! وأين هو عن أشرف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول له صاحبه : أمسك عليك نفسك ، لا يبلغُ عمر من حديثك هذا شيء فيظن بك النفاق ويؤدّبك أدباً لا تحبه . إنك لحديث

عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلا . ألم تسمع قول الله عز وجل : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » ؟ ! فإن عمر لم يزد على أن أنجز بعض وعد الله عز وجل لبعض هؤلاء المستضعفين في الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا : هو ذاك . وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ، واجتمع أهلها في المسجد ، فقرأ عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإنني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بابن أم عبد على نفسي ، وبعثت عثمان بن حنيف على السواد ، ورزقتهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرها وبطنها لعمار ، والشطرن الباقي بين هذين الرجلين » . وقد سمع أهل الكوفة ورضوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة . ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر في نفسه ما لقي من الجهد والمحنة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقي من الشدة والبأساء مع النبي بعد أن هاجر إلى المدينة ؛ فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله

إلى تكبر أو تجبر أو استعلاء ؛ لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبي أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنة يُمتحن بها أولو الحزم والعزم في أنفسهم ؛ فمن خلص منها كريماً نقيماً سليم القلب فهو من الناجين ، ومن رجع فيها حتى أرضى غرائزه وشهواته فهو من الذين حبطت أعمالهم وضلّ سعيهم^(١) وعُجلت لهم طبيباتهم في حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود في أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنمات عُقبَةَ بن أبي مُعيط ، قد أدبرت عنه الدنيا بسعيها ودعتها وثرأها ونعيمها ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رضى عن أمانته حين أبي أن يستميه ويسقى صاحبه من لبن غنم بن أبي مُعيط ، وذكر أن النبي ائتمنه على سرّه وضمه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبي قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأنقل في الميزان يوم القيامة من أحد » ؛ فلم يزد هذا إلا إيماناً وثبتيّاً وجباً للأمانة واستمسكاً بها ، ووفاءً لخليائه ونصحاً لأُمَّته .

وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة ، فكان يسيراً سمحاً لم يتغير من أمره شيء : صُمّت كثير ، وكلامٌ قليل ، واختلاطٌ بالناس كأنه رجل من عامتهم ، وإقامةٌ للعدل ، وحكمٌ بالقسط ، ونُصْحٌ في الدين لا تكلف فيه ولا تزَيّد . سئل ذات يوم في بعض ما يُشكل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعد ؟

(١) ضلّ سعيهم : أي فسدت أعمالهم وذهبت سدى ، وغابت .



قالوا لا . قال : دَعُوهُ حَتَّى يَكُونَ ؛ فَإِذَا كَانَ تَجَشَّمْنَاهَا^(١) لَكُمْ .
 وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَاتِ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ كَمَا يَخْرُجُ غَيْرِهِ مِنْ عَامَةِ
 النَّاسِ . تَحَدَّثَ مِنْ رَأَى وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ يَشْتَرِي قَتًّا بِدِرْهَمٍ ، ثُمَّ
 يَسْتَزِيدُ الْبَائِعَ حَبْلًا فَيَأْتِي عَلَيْهِ الْبَائِعُ ، فَيَجَاذِبُهُ عِمَارُ حَبْلَهُ وَيَنَازِعُهُ
 حَتَّى يَأْخُذَ نِصْفَهُ ، ثُمَّ يَحْمِلُ قَتَّهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَمْضِي بِهِ إِلَى دَارِهِ
 وَهُوَ الْأَمِيرُ ، لَا يُنْكِرُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَا يَرَى أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ
 يَغْضَبُ مِنْ قَدْرِهِ أَوْ يَحِطُّ مِنْ مَكَانَتِهِ ، وَلَا يَنْكُرُ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ
 شَيْئًا وَلَا يَرُونَ أَنَّهُ يَخْسَهُ^(٢) عَنِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي تَبْغِي لِلْأَمِيرِ . وَكَانَ عِمَارُ
 لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ مَهْمَا يُؤْذَنَ . فَإِذَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِحَقِّ اللَّهِ أَوْ لِحَقِّ
 النَّاسِ غَضِبَ عِمَارُ حَتَّى يَأْخُذَ بِالْحَقِّ وَيَسْرُدُ الْأَمْرَ إِلَى نِصَابِهِ .
 عَرَفَ أَنَّ رَجُلًا وَشَى بِهِ إِلَى عَمْرٍ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ
 إِنْ كَانَ قَدْ كَذَبَ عَلَيَّ فَابْسُطْ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَاجْعَلْهُ مُوْطَأَ الْعَقَبِ^(٣) .
 وَأَقْبَلَ بِجَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَدَدًا لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي بَعْضِ
 الْمَوَاقِعِ . فَلَمَّا أَظْفَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ : يَا أَجْدَعُ ،
 أَتُرِيدُ أَنْ تَشَارِكُنَا فِي غَنَائِمِنَا ؟ فَلَمْ يَزِدْ عِمَارُ عَلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يَضْحَكُ :
 خَيْرَ أُذُنِي سَبَبَتْ . وَكَانَتْ أُذُنُهُ تَلُكُ قَدْ أَصِيبَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 يَوْمَ الْيَمَامَةِ . وَقَدْ أَبَى أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ يُشْرِكُوا عِمَارًا وَأَصْحَابَهُ فِي الْغَنِيمَةِ ،
 وَأَبَى عِمَارُ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ لِأَصْحَابِهِ حَقَّهُمْ مِنْهَا . فَكَتَبُوا فِي ذَلِكَ إِلَى عَمْرٍ ،
 فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ عَمْرٌ : إِنَّمَا الْغَنِيمَةُ لِمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ . وَأَخَذَ عِمَارُ وَأَصْحَابُهُ

(١) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة .

(٢) يخسه : يحطه وينزل قدره .

(٣) هو موطاء العقب : أي يتبع ، وكانه تداس عقبه من ازدحام القوم وراءه .

حقهم . وكان عمر يُخالف بين وُلّاته على الأمصار ، لا يكاد يمدّ لأحدهم في الولاية . فلما عزل عماراً ولقيه بعد ذلك في المدينة قال له : أساءك عزلنا إياك ؟ فأجابه عمار : أما إذا قلت ذلك فقد ساءني حين استعملتني وساءني حين عزلتني . ثم فرغ عمار للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف وتأديب الناس في دينهم ما بقي من أيام عمر وصدرأ من أيام عثمان . ولكن عماراً يعلم ذات يوم أن عثمان قد أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر ، فيحضره خاطر مؤلم يمرّه في نفسه ثم يُلقيه في أعماق ضميره لا يحدث به نفسه بعد ذلك ولا يحدث به الناس ، ويذكر أن آية في القرآن قد أنزلت أشير فيها إليه وإلى عبد الله بن أبي سرح هذا الذي أمر على مصر ، وهي قول الله عز وجل : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرأ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبي سرح هو الذي أشير إليه في قول الله عز وجل : « من شرح بالكفر صدرأ » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبي سرح قد عاد بأخرة إلى الإسلام ، فعسى أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حطّ عنه ثقل الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبي سرح في مصر تُصبح موضع الشكوى بين المصريين كسيرة غيره من ولاة عثمان في الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع التنكير ، حتى يغضب المهاجرون والأنصار في المدينة ويتكلمون في ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون ، ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عن

وراءه من المسلمين ليحدثه برأى الناس في وولاته ، فلا يرضى قوله عثمان ، ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلماناه ويضربوه حتى يُغشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عماراً يفيق ويقول : طالما عُدَّ بنا في الله من قبل . ويصبح منذ ذلك اليوم زعيماً من زعماء المعارضة لعثمان .

٢٥

لبث عبد الله بن مسعود في الكوفة بعد أن عُزل عنها عمار ابن ياسر ، لم يَعدْ إلى المدينة ، ولم يُنحَ عن عمله ، وإنما ظل أميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها مشيراً على وولاتها . وقد علم الناس فأحسن تعليمهم ، فلأ قلوبهم حباً له وإعجاباً به ، وترك في نفوسهم أقوى الأثر وأبقاه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فأطال لزومه ، حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت ، وأخذ من فم النبي سبعين سورة من القرآن لم يُنازعه فيهنَّ أحد ، وكان النبي يحب قراءته للقرآن ويحبها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرَّه أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل فليقرأه على ابن أمّ عبد » .

وكان عبد الله شديد التأثير^(١) للنبي في قوله وعمله وفي حركته وسكونه وفي تحدثه إلى الناس واستماعه لهم ، وفي تأتسيه للأموار^(٢) حين تعرض ، وثباته للخطوب حين تشتد ، وكان شديد الاقتداء به

(١) التأثير : الاقتداء والاتباع .

(٢) تأتّى للأمر : ترفق له وتقصّد .

في هذا كله ، حتى اتفق الذين عرفوه من أصحاب النبي أنه كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وسمته ودله^(١). وكان حذيفة ابن اليمان يقول : ابن مسعود أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ودلاً حتى يُواريه جدار بيته . وكان ابن مسعود يُقرئ الناس القرآن أثناء إقامته في الكوفة ، ويعظهم عيشة كل خميس ، يقوم فيهم خطيباً معتمداً على عصاً ، فيتكلم ما شاء الله أن يتكلم ثم يسكت ، وأحب شيء إلى سامعيه أن يمضي فيما كان فيه من حديث . ولم يكن ابن مسعود يخاف شيئاً كما كان يخاف الرواية عن النبي ، شأنه في ذلك شأن المتحفظين الذين سمعوا النبي يقول : « من كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ! فأشفقوا أن يتحدثوا عنه فيخطئوا صدق الحديث وهم لا يشعرون . وجرى مرة على لسان ابن مسعود وهو يعظ الناس قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكذب هذا القول يجري على لسانه حتى أخذته رعدة عنيقة اضطرب لها جسمه كله وترعزت لها العصا التي كان يعتمد عليها وتصبب العرق على جبهته ، فقال : أو فوق هذا ، أو نحو هذا ، أو دون هذا ، ولم يرض أهل الكوفة على أحد من ولاتهم كما رضوا عن عبد الله بن مسعود وعن أبي موسى الأشعري . وقد توفي عمر رضي الله عنه وابن مسعود أمير على بيت المال في الكوفة ، فأقره عثمان على عمله . حتى إذا كانت ولاية الوليد بن عقبة للكوفة حدثت أحداث حولت ابن مسعود إلى المعارضة ،

(١) الهدى والسمت والدل ، قريب معنى بعضها من بعض ، وهي عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .

وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضى الناس عن عثمان وأحسنهم ذكراً له ودعاء إليه .

٢٦

وقد حدث بعض هذه الأحداث في الكوفة ، وحدث بعضها الآخر في المدينة ، فأما ما حدث منها في الكوفة فسياسة جديدة في بيت المال لم يألفها عبد الله بن مسعود ولم يكن ليظمن إليها أو يرضاها . فقد كان الوليد يتوسع في النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بمال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال للمسلمين لا للأمراء ، وأن الأمراء لا ينبغي أن يُنفقوا إلا بحقتها وفي الوجوه التي تنفع عامة المسلمين .

وإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عُقبة سيرة لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان الناس إلى ابن مسعود أميل ، وله أحب ، ولقوله أكثر استماعاً .

وأما ما حدث في المدينة فانتداب^(١) عثمان لجمع القرآن في مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد ألف عثمان لهذا العمل الخطير لجنة من حفص بن أسد بن عبد المطلب ، وجعل رئاستها لزيد بن ثابت . وليس من شك في أن عثمان قد نصح للمسلمين في هذا العمل ، وكره لهم أن يختلفوا في قراءة كتاب الله . ولما تم له جمع المصحف أذاعه في الأمصار ، وحظر

(١) انتدب للأمر : دعا إليه وحث عليه .

القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقدّم في تحريق غيره من الصحف
 التي كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود
 ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان .
 ثم لم يكتف بذلك ، وإنما جعل يلهج بنقد ما تقدم فيه عثمان وينقد
 سيرة الوليد في الكوفة . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس
 من كل أسبوع قال لهم فيما كان يقول : إن أصدق القول كتاب
 الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ،
 وكل محدثة بدعه ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ،
 ورأى الوليد في هذا الكلام تعريضا به وبعثان ، فتقدم إلى ابن
 مسعود في ألا يعيده ! فلم يخجل به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب
 فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة
 وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى
 ظاهر الكوفة محزونين يلحون عليه في أن يبقى بينهم ، ويخافون
 عليه من عثمان أن يبطش به أو يناله بمكرهه ، ويعاهدونه على
 أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء ؛ ولكنه أبى عليهم قائلا : إن هذا
 أمر سيكون ، وما أحب أن أكون أول من فتحه . ودخل المدينة
 ذات ليلة ، فلما أصبح غدا على المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم
 الجمعة . فلما رآه عثمان قال له قولا غليظا وعابه من أعلى المنبر ، فردّ
 عليه ابن مسعود قائلا : لست كما تقول ، ولكني صاحب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ويوم
 بيعة الرضوان . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : ويحك
 يا عثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم !

فقال لها عثمان : اسكتي ، ثم أمر بعض غلمانه بإخراجه من المسجد . فأقبل غلام أسود طوال فاحتمل ابن مسعود وأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وابن مسعود يحاول أن يفلت منه ورجلاه تختلفان على كتفيه وهو يصيح بعثمان : أنشدك الله لا تخرجني من مسجد خليلي صلى الله عليه وسلم . ولكن الغلام يمضي به ، حتى إذا بلغ باب المسجد ضرب به الأرض فكسرت إحدى أضلعه ، ومجلى إلى بيته مكروباً . ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما حرّمه عثمان عطاءه سنتين . فأقام ابن مسعود في المدينة مغضوباً عليه من الإمام ، يوادّه على رغم ذلك صديقه من أصحاب النبي . حتى إذا أدركه المرض الذي مات فيه عرف عثمان أنه مشرف على الموت . وهنا يختلف الرواة : فأما الناقمون من عثمان فيقولون إنه سعى إلى ابن مسعود واعتذر إليه وعرض عليه عطاءه وسأله أن يستغفر له ، فلم يقبل منه ابن مسعود شيئاً ، ووسط عثمان أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن مسعود فلم يقبل لها وساطة . ومات ابن مسعود والأمر بينه وبين عثمان على شرّ ما يكون . وقد يغلو الناقمون على عثمان فيزعمون أن ابن مسعود أوصى ألا يصلى عليه عثمان ، وأنّ عمار بن ياسر تلقى هذه الوصية وأنفذهها ، فكان هذا مما زاد غضب عثمان على عمار .

وأما الذين يتولون عثمان ويحسنون الظن بهؤلاء النفر من المهاجرين فيقولون : إن عثمان عاد ابن مسعود في مرضه واعتذر إليه ، فقبل منه واستغفر كلا الرجلين لصاحبه ، ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان وقام على قبره وأحسن الثناء عليه . وهذا أشبه بسيرة الرجلين جميعاً . ويدخل الزبير بن العوام على عثمان ، وكان ابن مسعود قد

أوصى إليه فيقول له : ادفع إلى عطاء ابن مسعود ؛ فإن عياله أحق به من بيت المال . قال عثمان : نعم ، ثم أدى إلى الزبير عطاء ابن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفع للزبير خمسة وعشرين ألفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بستين حول علي رضي الله عنه ، ويسدُّ كُرْبُ ابن مسعود ، فيقولون لعلي : يا مير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشدَّ ورعاً من عبد الله بن مسعود . فقال علي : نشدُّكم الله ، إنه لصدِّقٌ من قلوبكم ؟ قالوا : نعم . فقال : « اللهم إني أشهدك . اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

٢٧

لم يشتد أحد من أهل المدينة في معارضة عثمان حين ظهرت الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان يحب من القول أصرحه ، ومن العمل أوضحه ، ومن السيرة أشدها استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة من طبعه وعنصراً مقوماً لمزاجه ، وكان أزهد الناس في الدنيا وأقلهم احتفالاً بمنافعها ، وأشدَّهم خوفاً من الفتنة ، وأكثرهم انصرافاً عن تعقيد السياسة والتواءها . وكان يحب الحق ويسعى إليه ، ولا يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبي وصاحبيه استقامة لا عوج فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ، فاستقر في نفسه أن أمر السلطان يجب أن يستقيم دائماً كما استقام للنبي

وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع واختلاف الأهواء أيام عثمان ، شقّ عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يسيغه ، ولم تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيما بينه وبين نفسه ولاذ بصمته الطويل ، واستعاذ بالله من الفتنة كأشد ما يستعيذ الإنسان بالله منها . ثم رأى الناس وسمّهم ينكرون ، فلم يكذب يفكر ويقدر ويستقصى حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ، ولكنه على ذلك استمسك بالصمت واستعاذ بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدّث الناس في المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون في ذلك حتى أكثروا . وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لستأخذن حاجتنا من هذا المال وإن رَغمتُ أنوف أقوام . قال عليّ : إذن تمنع من ذلك . وقال عمار : أشهد الله أن أنفي أول راعم . وقد سكت عثمان لقول عليّ وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا في بعض ما يُروى أول الشر الذي انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصابه الفتق ووعشى عليه وفاته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاهن ، وذكر فتنة قریش له وتعذيبها إياه في الإسلام . ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته ، وجعل يقوم ويقعد بنقد عثمان . حتى إذا أقبل النائمون من الأمصار لم ينكر عليهم ولم يحاول ردهم . ثم قتل عثمان فلم يأسَ على قتله ،

وربما جادل في أن عثمان قد قُتل مؤمناً أو كافراً . وقد خصم الحسن بن عليّ في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدل بينهما حتى ارتفعا فيه إلى عليّ رحمه الله ، فكفّ عليّ عماراً عن مثل هذا الجدل في رفق .

ولم يشتدّ عمار في شيء بعد قتل عثمان كما اشتد في مناصرة عليّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية . في ذلك الوقت استيان الحقّ لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يشكّ لحظة في أن عليّاً وأصحابه كانوا على الحقّ ، وفي أن معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يُقبلْ عمار على حرب خالص النية فيها لله ورسوله بعد وفاة النبيّ كما أقبل على حرب صفين . كانت مقالة النبيّ له : « تقتلك الفئة الباغية » قد استقرت في أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له تجلية نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع عليّ وأصحابه يقصدون قِصْدَ صفين . هنالك لم يشكّ عمار في أن معاوية وأصحابه هم الفئة الباغية ، وفي أن هذه الحرب التي كانوا ينصبونها لابن عمّ النبيّ إنما كانت تُشبه غيرها من الحروب التي كانت قريش تنصبها للنبيّ نفسه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق . فخرج عمار إذن إلى حرب صفين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهب نفسه لله ، وابتغى الشهادة في صفين كما كان يبتغيها في المشاهد التي شهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفين على شطّ الفرات : اللهم إنه لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن أرى

بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت . اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق نفسى فعلت ؛ فإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبنى وأنا أريد وجهك . وكان عمار فى ذلك الوقت قد جاوز التسعين ، ولكن الناس ينظرون إليه فإذا هو قد استرد من القوة والشباب والنشاط ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرههم للعود . وأحبهم للموت ، وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق ، وأنه يقاتل فى سبيل الله . وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفانى فيه العرب إلا أن تُدركهم خفة العبد . يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدة نشاطه فى الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأناة .

وفى هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونه شيخاً طويلاً آدم ، تُرعدُ الحربة فى يده ، وهو خفيف الحركة موفور النشاط ، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك ، وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدثون ببلاثه ، بعضهم يصحب جيش على ولكنه لا يقاتل كخزيمة بن ثابت الأنصارى الذى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : تقتلك الفئة الباغية ، ورأى عماراً يقاتل مع على فهو يرقب عماراً ليرى آخرته . وبعضهم مع معاوية يشهد الحرب ولا يُشارك فيها ،

بلغته مقالة النبي في عمار فهو يرقبُ عماراً وينتظر آخرته . ومن هؤلاء هني مولى عمر بن الخطاب رحمه الله . في ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر ، فلما جعل الأصيل ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتلين اشتد نشاط عمار وأخذته شيء يشبه أن يكون شغفاً بالموت ، فجعل يحث من حوله على القتال ويصيح : الجنة تحت أطراف العوالى . اليوم ألقى الأجابة محمداً وحزبه ، وكان صائماً . فلما وجبت الشمس قال اسقوني . فجيء بشربة من لبن ، فلما رآها ضحك وشرب ثم قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آخرُ زادك من الدنيا لبنٌ حتى تموت » . ثم جعل يحرض الناس ويُعيد مقالته : الجنة تحت أطراف العوالى . الظمان يرد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألقى الأجابة . محمداً وحزبه . وقد انكشف أصحاب على شيئاً ، فلم يوهن ذلك من نفس عمار ولم يبلغ من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمت أننا على حق وأنهم على ضلالة . وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية على مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . وكان هاشم أعور ، فكان عمار يحثه ، يُغلف عليه مرة فيقول : تقدم يا أعور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدم يا هاشم فذاك أبى وأمى . وكان هاشم يقول له : رحمك الله يا عمار ! إني إنما أرحف باللواء وأرجو أن يفتح الله على ويبُلغنى ما أريد ، وإن في العجلة الهلكة . فيقول له تقدم

فذاك أبو وأمي ، وما يزال به حتى يتقدم . فإذا رأى عمار صاحب
 الراية يتقدم بها صاح بمن حوله : من رائج إلى الله ! من رائج
 إلى الجنة؟! ثم اندفع فقاتل حتى قتل .
 وقد رأى خزيمة بن ثابت مصرع عمار فقال : الآن استبان
 لي الضلالة ، ثم دخل فسطاطه فاغتسل ، ثم لبس سلاحه ثم تقدم
 فقاتل حتى قتل .

وأما هني مولى عمر بن الخطاب فقد عرف عماراً حين أسفر
 الصبح ، فأقبل حتى دخل على عمرو بن العاص وهو جالس
 على سريره ومن حوله نفرٌ يتحدث إليهم ، فقال هني : أبا عبد الله ؛
 قال عمرو : ما تشاء ؟ قال هني : انظر أكلمك . فقام عمرو حتى
 خلا إليه . قال هني : عمار بن ياسر ، ماذا سمعت فيه ؟ قال
 عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتله الفئة
 الباغية . قال هني : ها هو ذا مقتول . قال عمرو : هذا باطل .
 قال هني : بصرت عيني به مقتولاً . قال عمرو : هلم أرنيه .
 فذهب به حتى رآه بين القتلى . فلما رآه امتقع لونه ، ثم أعرض في
 شق ، وقال : إنما قتله من أخرجه .

وكان عمار قد قال لأصحابه مساء ذلك اليوم : لا تغسلوني
 ولا تحنثوا عليّ تراباً فإنني مخاصم . فلما قُتل أُقبل على فصاتي عليه ،
 ولم يُغسله وقال : « إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن
 ياسر وتدخل به عليه المصيبة الموحجة لغير رشيد . رحم الله عماراً
 يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً .
 لقد رأيت عماراً وما يُذكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أربعة إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً . وما كان

أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين . فهينئاً لعمار بالجنة . ولقد قيل : إن عمار مع الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار في النار!

٢٨

أقبل رجلان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفر من أصحابه ، فجعلوا يختصمان في قتل عمار ، كلهم يزعم أنه قاتله . قال عبد الله بن عمرو : ليطب به أحد كما نفساً لصاحبه ، وإنما تختصمان في النار ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفئة الباغية ، وقاتله وسالبه في النار » . قال معاوية لعمرو : ألا تكف عنا مجنونك يا عمرو ! ثم التفت إلى عبد الله بن عمرو وقال : إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبي شكاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرني أن أطيعه ما دام حيّاً ؛ فأنا معكم ولست أقاتل . قال معاوية : لم نقتله ، إنما قتله من جاء به .

جلس عمرو بن العاص إلى جماعة من أصحابه يسمر معهم بعد أن خلص الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما لأنه كان يستعملني ، وما أدري أكان يحبني أم كان يتألفني ^(١) ، وبكنا نرى أن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم . من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال

(١) يتألفه : يتكلف ألفته ويداريه .

القوم : عمار بن ياسر ! فذاك قتيلكم يوم صفين ؟ ! قال عمرو : صدقتم والله لقد قتلناه !

كان عمار على رأس كتيبته يوم قُتل ، وكان ذو الكلاع الحميري من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار . فقتلا كلاهما . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شرحبيل أبا ميسرة رجلا من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال : رأيت في المنام روضة خضراء فيها قبابٌ مضروبة فيها عمار ، وقبابٌ مضروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ فقيل : وجدوا ربياً واسع المغفرة .

٢٩

وأطرق القاص حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقة طويلة ، حتى ظن سامعوه أنه لن يقول شيئاً فهموا أن يتفرقوا ، ولكنه رفع إليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل : « وزريدٌ أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم ما كانوا يحذرون » . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة : صدق الله وعدّه ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضه ، وأدال لهم من قيصر وكسرى^(١) ، وجعلهم أئمة للناس ما عاشوا ، حتى إذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرتهم رضا ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أئمة للمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

بيراكافا - مولان

سبتمبر سنة ١٩٤٩

(١) أدال لهم : جعل الكرة لهم على الروم والفرس .



كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية : مرآة الإسلام
- في الأدب والنقد : فصول في الأدب والنقد
- في الأدب الجاهلي حديث الأربعاء (٣ أجزاء) تجديد ذكرى أبي العلاء مع أبي العلاء في سجنه ألوان - جنة الشوك من الأدب التمثيل اليوناني
- في أدب التمثيل : دعاء الكروان صوت باريس
- في القصة والرواية : الحب الضائع شجرة البؤس
- في التراجم والسير : على هامش السيرة (٣ أجزاء) عثمان الأيام (جزءان)
- في الاجتماع : الوعد الحق على وبنوه أديب - قادة الفكر نظام الأثينيين
- في التربية : مستقبل الثقافة في مصر
- في سلسلة اقرأ : أحلام شهرزاد الوعد الحق صوت أبي العلاء
- في الحب الضائع رحلة الربيع

٢٥ قرشاً ج. ع. م	٢٥٠ فلساً في العراق والأردن	٣٥٠ فرنكاً في المغرب
٢٠٠ ق. ل	٢٥٠ فلساً في الكويت	٣ ريالات سعودية
٢٥٠ ق. س	٣٠٠ مليم في تونس	٥ شلنات في البلاد
٢٥٠ ملياً في ليبيا والسودان	٣٥٠ فرنكاً في الجزائر	٠,٧٢ دولاراً (الأخرى



